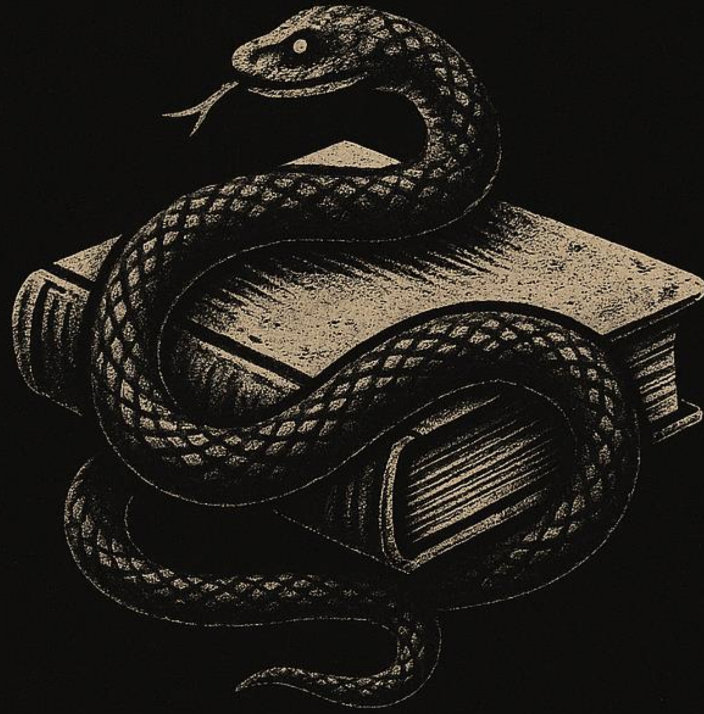
كيف أتت الثيوصوفية لي

لمؤلفه: سي. دبليو ليدبيتر

اعداد وترتيب: The Master Library





شعار المكتبة التي قامت بتنقيح الكتاب وترتيبه

تاريخ نشر الكتاب بالعربية: 2025/ تاريخ نشر الكتاب الأصلي: 1930

للتواصل مع القائم على المكتبة: zaidadwan@gmail.com (زيد العدوان)

الفهرس

العنوان	الصفحة
الفصل الأول	4
الفصل الثاني	9
الفصل الثالث	14
الفصل الرابع	18
الفصل الخامس	21
الفصل السادس	25
الفصل السابع	33
الفصل الثامن	41
الفصل التاسع	49

الفصل الأول:

في اليونان القديمة

كانت أول تجربة لي مع أي شيء يُمكن تسميته بالثيوصوفية في عام 504 قبل الميلاد، عندما حظيتُ بشرفٍ ومتعةٍ عظيمتين بزيارة الفيلسوف العظيم فيثاغورس. وُلدتُ في إحدى عائلات عائلة يوباتريدا في أثينا، وهي عائلةٌ كانت في ظروفٍ جيدةٍ نسبيًا، وكانت تُتيح فرصًا مُواتيةً للتقدم. كانت هذه الزيارة أهم حدثٍ في شبابي، وقد تحققت على هذا النحو. عرض عليّ أحد أقاربي أن يأخذني، مع أخي الأصغر بسنةٍ أو سنتين، في رحلةٍ بحريةٍ على متن سفينةٍ كان شريكًا فيها. كانت رحلةً تجاريةً بين الجزر اليونانية وصولًا إلى الساحل الآسيوي، وبأساليب تلك الأيام المُريحة، استغرقت قرابة عام، زرنا خلالها أماكنَ عديدةً، ولم نرَ فيها مناظرَ طبيعيةً خلابةً فحسب، بل معابدَ رائعةً مُزينةً بمنحوتاتٍ بديعة. من بين جزر أخرى، توقفنا في ساموس، وهناك وجدنا فيثاغورس العظيم، الذي كان آنذاك رجلاً متقدمًا في السن، وشارف على الموت. يعتقد بعض المؤرخين أن هذا الحكيم قد هلك عندما دمر التعصب الشعبي مدرسته في كروتونا؛ بينما يعتقد آخرون، معترفين بنجاته من تلك الكارثة، أنه توفي بعد ذلك بكثير في ميتابونتوم. لا يبدو أن أيًا من هذه الأفكار صحيح؛ فعندما كبر، غادر مدارسه في ماجنا جريسيا، وعاد إلى موطنه في ساموس لينهي أيامه من حيث بدأ، وهكذا حظينا بشرف عظيم برؤيته خلال رحلتنا.

كان تلميذه الرئيسي في ذلك الوقت هو كلاينياس (الآن الأستاذ جوال كول)؛

وكان كلاينياس في غاية اللطف معنا، وأجاب بصبر على جميع أسئلتنا المتلهفة، شارحًا لنا نظام الفلسفة الفيثاغورية. انجذبنا فورًا بشدة نحو التعاليم التي شُرحت لنا، وكنا متشوقين للانضمام إلى المدرسة. أخبرنا كلاينيس أنه سيتم افتتاح فرع لها قريبًا في أثينا؛ وفي غضون ذلك، قدّم لنا الكثير من التعليم في الأخلاق، وفي عقيدة التناسخ، ولغز الأعداد. وسرعان ما أصبحت سفينتنا جاهزة للإبحار (لحسن الحظ، كانت بحاجة إلى إعادة تجهيز)، واضطررنا للأسف إلى توديع فيثاغورس وكلاينيس. ولسعادتنا البالغة، عندما اتصلنا به لتوديعه، باركنا الفيلسوف المسن وقال بتشديد واضح - πάλιν συναντήσομεθα" :سنلتقي مجددًا". في غضون عام أو عامين، سمعنا بوفاته، ولذلك تساءلنا كثيرًا عن المعنى الذي ربما كان يقصده بهذه الكلمات؛ ولكن عندما حظيتُ في هذا التجسد الحالي بشرف لقاء المعلم كوثومي لأول مرة، أعاد إلى ذاكرتي ذلك المشهد القديم، وقال: "ألم أقل لك أننا سنلتقي مرة أخرى؟."

بعد وفاة فيثاغورس بفترة وجيزة، أوفى كلايناس بوعده بالمجيء وتأسيس مدرسة للفلسفة في أثينا، وبطبيعة الحال كنتُ أنا وأخي من أوائل تلاميذه. وقد اجتذبت تعاليمه أعدادًا كبيرة، واحتلت الفلسفة مكانة مرموقة في فكر ذلك العصر. وباستثناء ما كان ضروريًا لإدارة ممتلكات العائلة، كرّستُ كل وقتي تقريبًا لدراسة هذه الفلسفة وتدريسها، بل وخلفتُ كلايناس في منصبِه بعد وفاته.

موقفي المبكر

ربما كان هذا التفاني الخالص لهذه الفكرة السامية هو ما جعلني أقضي فترة طويلة جدًا في عالم السماء - ما يزيد قليلاً عن 2300 عام. لا أستطيع الجزم إلى أي مدى أثرت تلك الحقيقة على حياتي الحالية؛ لكنني

وصلت إلى هذا التجسد دون أي ذاكرة محددة لكل ما تعلمته على حساب كل هذا الوقت والجهد. في حياتي المبكرة، لم أكن أعرف شيئًا عن هذه الأمور على الإطلاق، ولكن بالنظر إلى تلك الفترة الآن، أستطيع أن أرى أنني وجدت نفسي أمتلك مجموعة من القناعات التي جلبتها بوضوح من تلك الحياة الأخرى. كان منتصف القرن الماضي وقتًا من المادية المنتشرة، وعدم الإيمان أو على الأقل عدم اليقين فيما يتعلق بالأمور الدينية، والإنكار الساخط لإمكانية أي نوع من التجليات غير المادية. حتى عندما كنت طفلاً، كنت أدرك أن الرجال كانوا يتجادلون بشدة حول وجود الله وإمكانية وجود شيء في الإنسان ينجو من الموت؛ لكن عندما سمعتُ مثل هذه النقاشات، تساءلتُ في صمت كيف يُمكن للناس أن يكونوا بهذه السذاجة، فأنا نفسي كنتُ أملك يقينًا داخليًا لا يتزعزع بشأن هذه النقاط، مع أنني لم أستطع الدفاع عن معتقداتي، أو حتى تقديم أي سبب يدعمها. لكنني كنتُ أعلم أن هناك إلهًا، وأنه صالح، وأن الموت ليس نهاية الحياة. حتى في تلك السن، كنتُ قادرًا على الاستدلال من هذه اليقينيات أن كل شيء لا بد أن يكون على ما يرام بطريقة ما، مع أن الأمور غالبًا ما كانت تبدو سيئة. أتذكر جيدًا كم شعرتُ بالرعب (وأخشى أنني كنتُ غاضبًا جدًا أيضًا) عندما عرض عليّ زميلٌ صغير نظرية الجحيم. عارضتُه على الفور، لكنه أصرّ على أنها صحيحة لأن والده قال ذلك. عدتُ إلى المنزل في غضبٍ شديد لأستشير والدي في هذا الأمر الذي لا يُصدق.

البغيضة؛ لكنه ابتسم بتسامح وقال: "حسنًا يا بني، أنا لا أصدق ذلك للحظة، لكن كثيرًا من الناس يعتقدون ذلك، ولا جدوى من محاولة إقناعهم؛ عليك فقط أن تتحمل ذلك." وهكذا تعلمت تدريجيًا أن قناعة المرء الداخلية، مهما بلغت قوتها، لا تُجدي نفعًا كحجة ضد الرأي السائد.

هناك جزء صغير آخر غريب من نصف الذكريات يبدو أنني استقيته من ذلك التجسيد اليوناني. في طفولتي، كنت أحلم كثيرًا بمنزل معين، مختلف تمامًا عن أي منزل كنت أعرفه في ذلك الوقت من الناحية المادية، لأنه كان مبنيًا حول فناء مركزي (مع نوافير وتماثيل وشجيرات) تطل عليه جميع الغرف. كنت أحلم بهذا ربما ثلاث مرات في الأسبوع، وكنت أعرف كل غرفة فيه وجميع من يعيشون فيه؛ كنت أصفه لأمي باستمرار، وأرسم له مخططات أرضية. كنا نسميه بيت أحلامي. ومع تقدمي في السن، قلّت أحلامي به تدريجيًا، حتى اختفى من ذاكرتي تمامًا.

ولكن في أحد الأيام، في وقت لاحق من حياتي، ولتوضيح نقطة ما، أراني سيدي صورة للمنزل الذي عشت فيه في تجسدي الأخير، فتعرفت عليه فورًا.

ومع أنني، كما ذكرتُ سابقًا، كنتُ أملك قناعة داخلية راسخة فيما يتعلق بالحياة بعد الموت، إلا أنني سرعان ما أدركتُ أنه عند مناقشة الأمر مع الآخرين، سيكون من المفيد جدًا الحصول على دليل مادي ملموس. خطر لي أن مثل هذه الأدلة يجب أن تكون قابلة للاكتشاف إذا كان المرء مستعدًا لبذل قدر معين من الوقت والجهد في البحث عنها. تذكرتُ عندما كنتُ صبيًا صغيرًا عثرتُ على نسخة من كتاب "الجانب الليلي من الطبيعة" للسيدة كرو، والذي قرأته باهتمام كبير؛ وبدا لي أنه لو أتيحت لي فرصة التحقيق المباشر في حالات مماثلة لتلك التي وصفتها، فسأتمكن مع مرور الوقت من التوصل إلى شيء محدد يمكنني الاستشهاد به ردًا على الاستفسارات.

التحقيقات الشخصية

في بعض الأحيان، كان يظهر في بعض الصحف تقرير عن ظهور شبح، أو عن أحداث غريبة في منزل مسكون؛ وكلما لفت انتباهي أي شيء من هذا القبيل، كنت أتوجه على الفور إلى مسرح الجريمة، وأستجوب

أي شهود أجدهم، وأقضي وقتًا وجهدًا كبيرين في محاولة مقابلة الزائر الشبح شخصيًا. بالطبع، في عدد كبير من الحالات، لم أجد أي شيء؛ إما لعدم وجود دليل جدير بالذكر، أو لأن الشبح رفض الحضور عندما كان مطلوبًا. حتى عندما كان هناك شاهد يمكن العثور عليه لديه قصة معقولة ليرويها، بدا أن الشبح لا يمكث طويلًا بما يكفي ليقول أو يفعل أي شيء ذي أهمية خاصة؛ أو ربما كان الشاهد هو من لم يمكث طويلًا!

ومع ذلك، وسط رتابة الإخفاقات الكثيرة، كانت هناك أحيانًا واحة مشرقة من النجاح الحاسم، وسرعان ما جمعتُ أدلةً مباشرة كانت ستُقنعني تمامًا لو احتجتُ إلى إقناع. في الوقت نفسه، بحثتُ أيضًا في عددٍ من حالات ما يُسمى "النظرة الثانية"، لا سيما في المرتفعات؛ وهناك وجدتُ أيضًا أنه من السهل على أي شخصٍ غير متحيز، مستعدٍ لبذل القليل من الجهد، أن يقتنع بصحة الظواهر.

<u>الروحانية</u>

للأسف، كنتُ في ذلك الوقت جاهلًا تمامًا بوجود مجالٍ آخر للبحث - وهو الروحانية. أول مرة، على حدِّ ذاكرتي، سمعتُ بمثل هذا الأمر كانت فيما يتعلق بجلسات تحضير الأرواح التي عقدها السيد د. د. هوم مع الإمبراطور نابليون الثالث. كتب القس موريس ديفيز سلسلة مقالات تصفهم في صحيفة ديلي تلغراف؛ لكن التصريحات التي أدلى بها بدت لي آنذاك غير معقولة، وعندما قرأت إحدى المقالات بصوت عالٍ لأمي ذات مساء، أعربت عن شكوك قوية حول مدى دقة الوصف.

ومع ذلك، اختتمت المقالة بملاحظة مفادها أن أي شخص يشعر بعدم القدرة على تصديق القصة يمكنه بسهولة إقناع نفسه بإمكانيتها بجمع عدد من أصدقائه، وحثهم على الجلوس بهدوء حول طاولة صغيرة، إما في الظلام أو في ضوء خافت، مع وضع راحتي أيديهم برفق على سطح الطاولة. وقيل إن خطة أسهل تتمثل في وضع قبعة حريرية عادية على الطاولة، بحيث تكون حافتها لأعلى، وترك شخصين أو ثلاثة يضعون أيديهم برفق على حافتها. وقيل إن القبعة أو الطاولة ستبدأ في الدوران قريبًا، وبهذه الطريقة سيتضح وجود قوة لا تخضع لسيطرة أي شخص حاضر. بدا الأمر بسيطًا نوعًا ما، واقترحت والدتي، بما أن الغسق كان قد بدأ للتو والوقت مناسب، أن نجري التجربة فورًا. لذلك، أخذت طاولة مستديرة صغيرة ذات ساق مركزية، وظيفتها المعتادة هي دعم أصيص زهور يحتوي على زنبق الكاب العظيم. أحضرتُ قبعتي الحريرية من على منضدة الردهة، ووضعتها على الطاولة، ووضعنا أيدينا على حافتها كما هو مُحدد. لم يكن هناك سوى أنا وأمي سوى صبي صغير في الثانية عشرة من عمره، اكتشفنا لاحقًا أنه وسيط روحي قوي، لكنني لم أكن أعرف شيئًا عن الوسطاء الروحانيين آنذاك. لا أعتقد أن أيًا منا توقع أي نتيجة على الإطلاق، وأعلم أنني فوجئت بشدة عندما دارت القبعة نصف دورة خفيفة لكنها حاسمة على سطح الطاولة المصقول. ظن كل منا أن الآخر حركها لا شعوريًا، لكنها سرعان ما حسمت هذا الأمر لنا، فقد دارت ودارت بقوة شديدة لدرجة أنه كان من الصعب علينا إبقاء أيدينا عليها. بناءً على اقتراحي، رفعنا أيدينا؛ فارتفعت القبعة تحتهما، كما لو كانت متصلة بهما، وبقيت معلقة على بُعد بوصتين من الطاولة لبضع لحظات قبل أن تسقط عليها. أذهلني هذا التطور الجديد أكثر، وسعيتُ جاهدًا للحصول على نفس النتيجة مرة أخرى. لبضع دقائق، رفضت القبعة الاستجابة، ولكن عندما عادت أخيرًا كما كانت من قبل، جلبت معها الطاولة! ها هي قبعتي الحريرية المألوفة، والتي لم أشك من قبل في أي خصائص غامضة، معلقة في الهواء بشكل غامض من أطراف أصابعنا، ولم تكتفِ بتحدي قوانين الجاذبية من تلقاء نفسها، بل ربطت طاولة برأسها ورفعتها أيضًا! نظرتُ إلى أسفل إلى أقدام الطاولة؛ كانت على بُعد حوالي ست بوصات من السجادة،

ولم تكن هناك قدم بشرية تلمسها أو تقترب منها! مررتُ قدمي تحتها، ولكن لم يكن هناك شيء بالتأكيد - لا شيء ملموس جسديًا على أي حال.

بالطبع عندما تحركت القبعة لأول مرة، خطر ببالي أن الصبي الصغير لا بد أنه يلعب خدعة علينا بطريقة ما؛ لكن في المقام الأول، من الواضح أنه لم يكن يفعل ذلك، وفي المقام الثاني، من المستحيل أن يكون قد توصل إلى هذه النتيجة دون أن يُلاحظ. بعد حوالي دقيقتين، انفصلت الطاولة عن القبعة، وسقطت الأخيرة على الفور تقريبًا إلى رفيقتها، ولكن التجربة تكررت عدة مرات على فترات بضع دقائق. ثم بدأت الطاولة تهتز بعنف، وألقت القبعة بعيدًا - تلميح واضح لنا، لو كان أي منا على دراية كافية لأخذه. لكن لم يكن لدى أي منا أي فكرة عما يجب فعله بعد ذلك، على الرغم من اهتمامنا الشديد بهذه الحركات غير العادية. لم أكن أفكر بنفسي في الظاهرة على أنها مجرد تجلي من بين الأموات، بل مجرد اكتشاف لقوة جديدة غريبة. دفعتني هذه البداية التافهة إلى إجراء المزيد من التحقيقات، وسرعان ما وجدت أن هناك أدبيات كثيرة مخصصة لهذا الموضوع، وأنه يمكنني مواصلة تحقيقاتي بشكل أكبر من خلال جلسات استحضار الأرواح مع وسطاء روحانيين عاديين. بالطبع، واجهتُ قدرًا من الخداع، بل وقدرًا أكبر من الغباء، لكنني سرعان ما اقتنعتُ بما لا يدع مجالًا للشك بأن بعض هذه المظاهر، على الأقل، كانت نتيجة أفعال من نسميهم الموتى.

هناك ظاهرة واحدة تقريبًا قرأتُ عنها في الكتب الروحانية، أو سمعتُ عنها في الأوساط الروحانية، لم أشهدها بنفسي في ظروف اختبارية محددة. أي قارئ يرغب في الاطلاع على سردٍ أشمل لأبحاثي ونتائجها سيجده في كتابي "الجانب الآخر من الموت"، أو في ذلك الجزء الصغير من الكتاب نفسه المنشور بشكل منفصل تحت عنوان "الروحانية والثيوصوفية."

لقد رويت بتفصيلٍ كبير بعض أحداث حياتي المبكرة لأوضح لقرائي موقفي الذهني عندما واجهتُ الثيوصوفية في النهاية، وهو ما أعتقد أنه يفسر كيفية تفاعلي الفوري معها. لعلّني أذكر حادثةً أخرى من حياتي قبل الثيوصوفية، وإن كانت تافهة في حد ذاتها، إلا أنها هيّأتني لقبول الكثير مما كنت لأشكّ فيه لولا ذلك.

قصة السيدة بلافاتسكي

كان أول خبر سمعته عن مؤسِّستنا العظيمة، السيدة بلافاتسكي، غريبًا ومميزًا، وكان سماعه حدثًا بالغ الأهمية في حياتي، مع أنني لم أكن أعرف ذلك حينها. اتخذ صديقٌ مخلصٌ لي من أيام الدراسة مهنةً للحياة البحرية، وحوالي عام ١٨٧٩ كان ضابطًا ثانيًا على متن إحدى السفن الساحلية التابعة لشركة الملاحة البخارية البريطانية الهندية. في رحلتها من بومباي إلى كولومبو، سافرت السيدة بلافاتسكي على متن تلك الباخرة، وهكذا التقى صديقي بتلك الشخصية الرائعة.

حكى لي قصتين غريبتين للغاية عنها. يبدو أنه في إحدى الأمسيات كان على الجسر يحاول عبثًا إشعال غليون وسط ريح عاتية. ولأنه كان في الخدمة، لم يستطع مغادرة الجسر، فأشعل عود ثقاب تلو الآخر، فرأى اللهب ينطفئ على الفور بفعل الرياح. أخيرًا، وبتعبير عن نفاد صبره، تخلى عن المحاولة. وبينما كان يعدل نفسه، رأى أسفله مباشرة شكلًا داكنًا ملفوفًا بعباءة، وناداه صوت السيدة بلافاتسكي الواضح: "ألا يمكنك إشعاله إذن؟".

أجاب: "لا أعتقد أن أحدًا يستطيع إشعال عود ثقاب في ريح كهذه".

قالت السيدة بلافاتسكي: "حاولي مرة أخرى".

ضحك، لكنه أشعل عود ثقاب آخر، وأكد لي أنه في خضم تلك العاصفة، ودون أي حماية منها، اشتعل ذلك العود بلهب ثابت يصل إلى الأصابع التي تمسكه. صُدم لدرجة أنه نسي إشعال غليونه، لكن هـ. ب. ب. ضحك فقط وانصرف.

7

وفي مناسبة أخرى خلال الرحلة، أشار الضابط الأول، بحضور السيدة بلافاتسكي، عرضًا إلى ما سيفعله في رحلة العودة من كلكتا. (كانت السفن البخارية تبحر حول الساحل من بومباي إلى كلكتا والعودة). قاطعته قائلة: "لا، لن تفعل ذلك، لأنك لن تقوم برحلة العودة على الإطلاق." عندما تصلين إلى كلكتا، ستُعيَّنين قائدةً لسفينة بخارية أخرى، وستسلكين طريقًا مختلفًا تمامًا.

قال الضابط الأول: "سيدتي، أتمنى من كل قلبي أن تكوني على حق، لكن هذا مستحيل. صحيح أنني أحمل شهادة ربان، لكن هناك الكثيرون قبلي على قائمة الترقية. علاوة على ذلك، وقّعتُ اتفاقيةً للخدمة في رحلة بحرية ساحلية لمدة خمس سنوات".

أجابت السيدة بلافاتسكي: "لا يهم كل هذا؛ ستجدين أن كل شيء سيحدث كما أخبركِ".

وقد حدث ذلك بالفعل؛ فعندما وصلت تلك الباخرة إلى كلكتا، وُجد أن شاغرًا غير متوقع قد حدث (أعتقد أنه بسبب الوفاة المفاجئة لقبطان)، ولم يكن هناك من يستطيع شغله سوى ذلك الضابط الأول نفسه. وهكذا تحققت النبوءة التي بدت مستحيلة تمامًا.

بعد سنوات، عندما كنت في طريقي من جاوة إلى الهند مع السيد فان مانين، سافرت على متن باخرة كان قبطانها هو نفس الرجل الذي كان الضابط الأول في قصة صديقي، وقد روى لنا الحكاية من وجهة نظره، مؤكدًا تمامًا الرواية الأصلية.

لم تكن هذه النقاط ذات أهمية كبيرة في حد ذاتها، لكنها كانت تحمل الكثير من الدلالة، وكان تأثيرها عليّ كبيرًا بشكل غير مباشر. ففي أقل من عام بعد تلك المحادثة، وقع كتاب السيد أ. ب. سينيت "العالم الخفي" بين يدي، وبمجرد أن رأيت اسم السيدة بلافاتسكي عندما ذكرتُ فيها، تذكرتُ على الفور القصص التي رواها لي صديقي. وبطبيعة الحال، فإن الأدلة القوية المباشرة التي كنتُ قد حصلتُ عليها بالفعل عن قدراتها الخارقة هيأتني للاعتراف بإمكانية وجود هذه الأمور الجديدة الغريبة الأخرى التي كتب عنها السيد سينيت، وبالتالي، لعبت هاتان القصتان القصيرتان دورًا بالغ الأهمية في حياتي، إذ هيّأني لقبول الحقائق الثيوصوفية فورًا وبحماس.

الفصل الثاني

"العالم الخفي"

سبق أن ذكرتُ أن أول كتاب ثيوصوفي وقع بين يدي كان كتاب "العالم الخفي" للسيد أ. ب. سينيت. رأيتُه مُعلنًا في كتالوج للكتب المستعملة، وأعجبني عنوانه كثيرًا، فطلبته على الفور، وكنتُ محظوظًا بالحصول عليه. بطبيعة الحال، أثارت القصص التي يحتويها اهتمامي بشدة، لكن جاذبيته الحقيقية كانت في لمحاته عن نظام فلسفي بديع، وعن نوع من العلم الباطني بدا لي أنه يُفسر الحياة تفسيرًا عقلانيًا، ويُفسر العديد من الظواهر التي لاحظتها.

كنتُ بالطبع متشوقًا لمعرفة المزيد عن هذا، لكنني لم أكن مُعتادًا على أساليب الأدب، فلم أكن أعرف على الإطلاق كيفية الحصول على مزيد من المعلومات. بفضل خبرتي السابقة، أرى الآن أنه كان من السهل كتابة رسالة إلى المؤلف وإرسالها إلى دار النشر؛ لكن هذا الحل للصعوبة لم يخطر ببالي. في نهاية كتابه، يُعلق السيد سينيت: قد يتساءل بعض القراء المهتمين، ولكنهم بطيئون في إدراك الإجراءات العملية التي يمكنهم اتخاذها، عما يمكنهم فعله لإظهار تقديرهم لهذه الفرصة. سيكون ردي مُستوحى من الوصية الشهيرة للسير روبرت بيل: "سجّل، سجّل، سجّل**!**". اتخذ الخطوة الأولى نحو الاستجابة للعرض الصادر من عالم السحر - سجّل، سجّل، سجّل؛ بمعنى آخر، انضم إلى الجمعية الثيوصوفية - الجمعية الوحيدة التي تربطها حاليًا رابطة اتحاد مُعترف بها مع جماعة المُريدين في التبت.

كنتُ حريصًا جدًا على اتباع هذه النصيحة، لكنني وجدتُها صعبة المنال. ذكر المؤلف وجود جمعية ثيوصوفية في لندن، لكنه لم يذكر عنوانها، فبحثتُ عنها عبثًا في دليل مكتب البريد. استفسرتُ كثيرًا من الأصدقاء، لكن لم أجد من يساعدني في بحثي.

10

بعد ذلك بوقت قصير، كنتُ في اسكتلندا أبحث عن أدلة على البصيرة الثانية في المرتفعات، ويبدو أنني وجدتُ، بمحض الصدفة (لكنني أشك في حدوث أي شيء بالصدفة)، على طاولة غرفة القراءة في أحد الفنادق نسخة من مجلة روحية صغيرة - لم تكن أكثر من مجرد منشور؛ أعتقد أنها كانت تُسمى "أشعة النور"، أو اسمًا من هذا القبيل. كان فيها إعلان يشير إلى الدكتورة آنا كينغسفورد، رئيسة محفل لندن للجمعية الثيوصوفية، ويذكر أنها زوجة رئيس أو قسيس إحدى قرى أو مدن غرب البلاد - أعتقد أن اسمها كان أتشام. بطبيعة الحال، عثرتُ على هذا الدليل، فكتبتُ إليها على الفور في ذلك المقرّ، طالبًا المزيد من المعلومات. مرّ بعض الوقت قبل أن أتلقّى ردًا، إذ تبيّن لاحقًا أن الدكتور كينغسفورد كان مسافرًا في القارة الأوروبية لقضاء عطلة؛ وحتى عندما وصل، تبيّن أنه مجرد نشرة مطبوعة - مطبوعة بشكل جميل للغاية، مع الكثير من الفضة -. لكنها زوّدتني بالمعلومات التي أردتها - عنوان السكرتير في لندن، وأخبرتني أيضًا أنه للانضمام إلى الجمعية، يجب أن يُرشّحني عضوان ويؤيداني.

كيف انضممتُ؟

كان السكرتير هو السيد كيربي (ليس السيد كيربي المعروف في السنوات الأخيرة فيما يتعلق بعمل الجمعية في إيطاليا، بل كيربي من كتاب كيربي وكتاب سبنس "علم الحشرات"، وهو كتاب درسته في طفولتي).
كتبتُ إليه على الفور، موضحًا رغبتي في الانضمام، لكنني لم أحظَ بمتعة معرفة أيٍّ من الأعضاء الحاليين؛ ماذا أفعل؟ اضطررتُ مجددًا إلى الانتظار طويلًا للحصول على رد، لأن السيد كيربي كان أيضًا في الخارج - أعتقد أنه كان يتسلق قممًا في سويسرا؛ لكنه أجابني أخيرًا بصرامة أن القواعد غير قابلة للانتهاك، وأنه لا يمكن استثناء أيٍّ منها، واقترح عليّ، كفكرة عابرة، أن أزور السيد أ. ب. سينيت أو السيد ج. ب. فينش.

وافقتُ على هذا الاقتراح وكتبتُ رسالة إلى السيد سينيت، مع أنني لم أجرؤ على التمني بأنه قد يكون حقًا مؤلف الكتاب الذي أثّر بي بشدة. سرعان ما حسم رده هذه النقطة، ودعاني إلى لندن لرؤيته. كان قد عاد مؤخرًا من الهند، وكان يقيم مؤقتًا في منزل حماته، السيدة إيدنسور، في رويال كريسنت، نوتينغ هيل.
استقبلني بحفاوة بالغة وكرم ضيافة، وتحدثنا كثيرًا عن كتبه (لأنني بحلول ذلك الوقت كنت قد اكتشفت أيضًا البوذية الباطنية) والوحي الرائع الذي تحتويه. كلما سمعتُ أكثر عن الثيوصوفية، ازداد حرصي على معرفة كل ما يمكن أن يُقال لي؛ ولكن عندما تحدثتُ عن الانضمام إلى الجمعية الثيوصوفية، أصبح السيد سينيت جادًا للغاية ورأى أن ذلك لن يكون كافيًا، نظرًا لكوني رجل دين! تساءلتُ بدلًا من ذلك عن سبب تمييز الجمعية ضد أعضاء الجماعة؛ وفي النهاية تجرأت على طرح السؤال بخجل. أجاب السيد سينيت: "حسنًا، كما ترى، نحن معتادون على مناقشة كل موضوع وكل معتقد من البداية، مع "لا تكن لديك أية أفكار مسبقة على الإطلاق؛ وأخشى أنك قد تسمع في اجتماعاتنا الكثير مما قد يصدمك بشدة." كنتُ قد حضرتُ، قبل سنوات، بعض محاضرات السيدة بيسانت في قاعة العلوم بشارع أولد ستريت، على طريق المدينة، وظننتُ أنه بعد ذلك، لن يُسيء إليّ أيٌّ مما قد يقوله أعضاء الجمعية الثيوصوفية بشدة؛ لذلك طمأنتُ السيد سينيت مبتسمًا أنني آمل ألا أكون من هذا النوع من رجال الدين، وأن أكون مستعدًا تمامًا للمشاركة في أي نقاش قد ينشأ، بغض النظر عن معتقدات المُناقشين. عندها، هدأ السيد سينيت قليلًا، بل قال إنه إذا كان الأمر كذلك حقًا، فسيكون لديه متعة خاصة في قبول رجل دين؛ ولكن قبل اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة، يجب عليه استشارة مجلسه. لذلك اضطررنا إلى ترك الأمر عند هذا الحد، وعدتُ إلى منصبي كقسيس ريفي على بُعد خمسين ميلًا في هامبشاير.

السيد أ. ب. سينيت

لكن في غضون أسبوع، تلقيتُ رسالة من السيد سينيت تقول: وافقت أغلبية المجلس على قبولي، وأنه إذا ملأت الاستمارات اللازمة، فسيكون سعيدًا بترشيحي شخصيًا؛ كما نصحني بزيارة السيد ج. ب. فينش، الذي من المرجح أن يؤيد طلبي إذا نال إعجابه. أثبت السيد فينش لطفه كلطف السيد سينيت، وسرعان ما أُبلغت بقبولي أخيرًا كعضو في الجمعية، وأنني إذا زرت منزله في مساء ما، فقد أُقبل. بحلول ذلك الوقت، كان السيد سينيت قد انتقل إلى منزله الخاص في حدائق لادبروك، وهناك قمتُ بإصلاحه في الموعد المحدد.

وجدتُ أنني سأُقبل في أسرار الجمعية مع متقدمين آخرين، البروفيسور والسيدة كروكس. حتى حينها، أدركتُ شرف القبول مع عالمٍ مرموقٍ كهذا، فرغم أن البروفيسور كروكس لم يكن السير ويليام بعد، إلا أنني كنتُ أعرف... كان الانضمام إلى الجمعية الثيوصوفية في تلك الأيام مهمةً شاقةً نوعًا ما. وجدنا قاعة الاستقبال الكبيرة للسيدة سينيت مكتظةً للغاية، حتى أن الحضور اكتظّ بالحضور حتى الطابق السفلي، وعلى بُعد خطواتٍ قليلةٍ من الدرج. أعتقد أن عدد الحضور ربما بلغ حوالي مائتي شخص، من بينهم بعض الشخصيات المرموقة - مثل البروفيسور مايرز، وسي. سي. ماسي، وستينتون موسى، وآخرين. جلسنا نحن

الثلاثة معًا على أريكةٍ وسط الحشد، وبعد أن ألقى السيد سينيت عظةً حول أهداف الجمعية وعملها، زوّدنا بسلسلةٍ من الإشارات وكلمات المرور التي تُمكّننا من التعرف على زملائنا الأعضاء في أي مكانٍ من العالم. ومنذ ذلك الحين، اختفت هذه الإشارات والكلمات في معظم البلدان، على الرغم من أنني... أعتقد أن رئيستنا لا تزال تُعطيها لأي مرشح تستقبله في الهند. بعد ذلك، لم أفوّت سوى القليل من اجتماعات المحفل، حيث كنتُ أزور لندن أسبوعيًا تقريبًا. في الواقع، كان السيد سينيت مضيافًا لدرجة أنه منحني دعوة مفتوحة لتناول العشاء وقضاء الليلة في منزله في هذه المناسبات، حيث كنتُ أعيش على بُعد خمسين ميلًا. في تلك العشاءات والاجتماعات التي تلتها، التقيتُ بالعديد من الشخصيات المعروفة، واستمعتُ إلى العديد من المحادثات الشيقة والمفيدة. يجب أن نتذكر أن جميع الدروس كانت جديدة علينا في ذلك الوقت، وأن هناك العديد من النقاط التي كانت معلوماتنا عنها ناقصة للغاية، وبالتالي كان هناك مجال واسع للنقاش. سلاسل الكواكب، ومستويات الطبيعة المختلفة، وظروف الوعي لكل منها - كل هذه الأمور جاءت إلينا ككشف جديد، ولم نواجه صعوبة تُذكر في التوفيق بين العبارات المتناثرة الواردة في الردود التي تلقيناها على أسئلة السيد سينيت المتنوعة. لم تكن شمس رئيسنا الحالي قد أشرقت بعد فوق الأفق الثيوصوفي، لذلك لم يكن لدينا من يفكّ تشابك الخيوط المتشابكة أو يوفق بين التصريحات المتضاربة ظاهريًا.

أتذكر أنني أحدثتُ ضجة صغيرة على مائدة العشاء عندما أعلنتُ أنه بدا لي من البديهي أن يضع كلٌّ منا أمام نفسه نيةً محددةً في أن يصبح تلميذًا لأحد الأساتذة الماهرين العظماء. بدا أن الاقتراح كان بمثابة صدمةٍ للحاضرين، إذ قُبل في صمتٍ مطبق؛ ولم يُعلّق السيد سينيت إلا بعد صمتٍ مُلحّ أنه يفترض أن الأوروبيين لا يمكنهم أن يأملوا في أي شيءٍ من هذا القبيل في المرحلة الحالية من معرفتنا - وهو أمرٌ صحيحٌ تمامًا، لكنني اعتقدتُ أنه يُمكننا على الأقل أن نُوجّه وجوهنا بعزمٍ نحو هذا الاتجاه.

كانت اجتماعات محفل لندن هذه تقريبًا مصادرنا الوحيدة للمعلومات الثيوصوفية في تلك الأيام. أعتقد أننا كنا مجموعةً من الطلاب المُتحمسين للغاية، ولكن كان هناك حقًا ليس لدينا الكثير لندرسه. بالإضافة إلى كتابي السيد سينيت، كان لدينا العمل الضخم للسيدة بلافاتسكي "إيزيس يو".

قرأنا كتابًا رائعًا للدكتورة آنا كينغسفورد بعنوان "الطريق الأمثل أو إيجاد المسيح". احتوى هذا الكتاب الأخير على معلومات غزيرة، ولكنه عُرض من منظور مختلف تمامًا عن منظور كتب السيد سينيت، وكان من الصعب على معظمنا متابعته. أما كتاب "إيزيس المكشوفة" فهو فوضى عارمة من المواد الشيقة للغاية، لكننا وجدنا صعوبة بالغة في استخلاص أي شيء منه يمكن وصفه بنظام متماسك أو محدد. لكننا جاهدنا قدر استطاعتنا، وبعد ذلك بقليل، تلقينا تشجيعًا كبيرًا لسماع أن المعلم كوثومي كان مسرورًا بالجهود التي بذلناها، وأنه سيرسل من الهند أحد تلاميذه لمساعدتنا في عملنا. السيد م. م. تشاترجي

كان هذا التلميذ السيد موهيني موهين تشاترجي، وهو محامٍ شاب من كلكتا، وقد وصل إلى لندن برفقة الكولونيل أولكوت في أوائل عام ١٨٨٤. ولا بد لي من القول إنه كان ذا عون كبير لنا، ومن خلال خطاباته، اكتسبنا فكرة واضحة عن طريق البدء ومتطلباته. ويظهر بيان لهذه المتطلبات بصيغته في أولى محاضرات محفل لندن.

١٤

أتذكر جيدًا مناسبة ظهوره الأول في إحدى حفلات الاستقبال المسائية للسيد سينيت. وقف الكولونيل أولكوت وموهيني على سجادة الموقد أمام الموقد، وتم إحضار حوالي مائتي شخص وتعريفهم بهم واحدًا تلو الآخر.

وكان من بينهم السيد أوسكار وايلد سيئ السمعة، الذي كان دائمًا ما يوحي بالرغبة في التميز (إن لم نقل الغرابة) في سلوكه وملابسه. في تلك المناسبة، أتذكر أنه كان يرتدي مخملًا أسود، وبنطالًا قصيرًا وجوارب بيضاء. اقترب من موهيني، فقُدِّم إليها، وانحنى برشاقة، وعند انسحابه قال للسيدة سينيت بهمسٍ مسموع: "لم أُدرك من قبل الخطأ الذي نرتكبه بكوننا بيضًا!". كان موهيني، كونه براهمانيًا، جاهلًا تمامًا بالعادات الغربية، وأعتقد أن سماحه لتلك الحشود من شاربي النبيذ من المليشات بإمساكه من يده سبب له انزعاجًا شديدًا. بدا عليه المرض، لكنه تحمله بنبل، وبالطبع لم يكن لدى أي منا أدنى فكرة عما حدث. أجاب بصبر على عدد كبير من الأسئلة التي لا بد أنها بدت له سخيفة وجاهلة للغاية، وخرج منتصرًا كبطل الأمسية، حيث نظرت إليه معظم السيدات المسنات برهبةٍ وإجلال. السيد إجلينتون

خلال بحثي في الروحانية، تواصلتُ مع معظم الوسطاء الروحانيين البارزين في ذلك الوقت، ورأيتُ (كما ذكرتُ سابقًا) كل الظواهر العادية التي يقرأ عنها المرء في الكتب التي تتناول هذا الموضوع. كان السيد إجلينتون أحد الوسطاء الروحانيين الذين تعاملتُ معهم كثيرًا؛ ورغم أنني سمعتُ قصصًا تُروى ضده، إلا أنني أشهد أنني في جميع تعاملاتي معه وجدتُه صريحًا وعقلانيًا ومهذبًا للغاية. كان لديه ما يُسمى بالوسطاء الروحانيين - إحداهن فتاة من الهنود الحمر تُسمي نفسها ديزي، وتثرثر بفصاحة في جميع المناسبات، سواءً كانت مناسبة أو غير مناسبة. وكان الآخر عربيًا طويل القامة يُدعى عبد الله، يزيد طوله عن مترين، لم يتفوه بكلمة قط، ولكنه كان يُظهر ظواهر مذهلة، وكثيرًا ما يُظهر مآثر تُظهر قوة هائلة. لقد رأيته يرفع رجلين ثقيلين في آنٍ واحد، أحدهما في كل يد.

وكان إرنست وسيطًا روحانيًا ثالثًا يظهر كثيرًا؛ كان نادرًا ما يظهر، لكنه كان يتحدث بصوت مباشر في كثير من الأحيان، ويكتب بخط مميز ومثقف. في أحد الأيام، أثناء حديثي معه، قيل شيء ما يتعلق بأساتذة الحكمة؛

15

تحدث إرنست عنهم ببالغ الاحترام، وقال إنه حظي بشرف رؤيتهم في مناسبات مختلفة. سألته على الفور عما إذا كان مستعدًا لتولي أي رسالة أو خطاب لهم، فقال إنه سيفعل ذلك عن طيب خاطر، وسيسلمها عندما تتاح له الفرصة، لكنه لم يستطع تحديد موعد ذلك بالضبط.

أذكر هنا أنه في هذا الصدد، كان لديّ لاحقًا مثال جيد على عدم موثوقية جميع هذه الاتصالات. بعد فترة طويلة، كتب أحد الروحانيين إلى لايت موضحًا أنه لا يمكن أن يكون هناك أشخاص مثل الأساتذة، لأن إرنست أخبره بالتأكيد أنه لا يوجد. كتبتُ إلى نفس الصحيفة لأخبرها أنني حصلتُ على نفس السلطة عديمة القيمة التي تُفيد بوجود سادة، وأن إرنست يعرفهم جيدًا. في كل مرة، كان إرنست يعكس بوضوح فكر السائل، كما تفعل هذه الجهات غالبًا.

للعودة إلى قصتي، قبلتُ عرض إرنست مؤقتًا على الفور. قلتُ إنني سأكتب رسالة إلى أحد هؤلاء الأساتذة العظماء، وسأُطلعه عليها إذا وافق صديقي ومعلمي، السيد سينيت. عند ذكر هذا الاسم، انزعجت "الأرواح" بشدة؛ كانت ديزي على وجه الخصوص غاضبة للغاية، وأعلنت أنها لن تتعامل مع السيد سينيت تحت أي ظرف من الظروف؛ قالت بسخط شديد: "يا إلهي، إنه يُطلق علينا لقب الأشباح!". ومع ذلك، تمسكتُ برأيي بهدوء، وهو أن كل ما أعرفه وصلتني رسالة من الثيوصوفية عبر السيد سينيت، ولذلك لم أجد مبررًا للتدخل من وراء ظهره بأي شكل من الأشكال، أو محاولة إيجاد وسيلة أخرى للتواصل دون استشارته أولًا.

وأخيرًا، ورغم سوء نية، وافقت الأرواح على ذلك، وانتهت الجلسة على الفور. عندما أفاق السيد إجلينتون من غيبوبته، سألته كيف يمكنني إرسال رسالة إلى إرنست، فقال على الفور إنه إذا سمحت له بالرسالة، فسيضعها في صندوق مُعلّق على الحائط، ليأخذها منه إرنست متى شاء. ثم أرسلتُها إلى السيد سينيت، وسألته عن رأيه في كل هذا. أبدى اهتمامًا شديدًا على الفور، ونصحني بقبول العرض فورًا ورؤية ما سيحدث.

رسالة إلى المعلم

عندها عدت إلى المنزل وكتبت ثلاث رسائل. كانت الرسالة الأولى موجهة إلى الأستاذ ك. هـ.، أخبرته فيها بكل إجلال أنني منذ أن سمعتُ بالثيوصوفية، كانت رغبتي الوحيدة أن أتلمذ على يديه. أخبرته بظروفي آنذاك، وسألته إن كان من الضروري أن أقضي فترة الاختبار السبع التي سمعتُ عنها في الهند. وضعتُ هذه الرسالة في ظرف صغير وختمتها بخاتمي بعناية. ثم أرفقتها برسالة إلى إرنست ذكّرته فيها بوعده، وطلبتُ منه تسليمها لي، وإحضار رد إن وُجد. أما الرسالة الثانية، فقد ختمتها بنفس طريقة الأولى، ثم أرفقتُها بدورها بملاحظة قصيرة إلى إجلينتون، أطلب منه وضعها في صندوقه، وإبلاغي إن كان قد أُخذت بعين الاعتبار. كنت قد طلبت من صديق يقيم معي فحص أختام الرسالتين بالمجهر، حتى إذا رأيناهما مرة أخرى، يمكننا معرفة ما إذا كان أحد قد تلاعب بهما. وعند عودتي، تلقيت رسالة من السيد إجلينتون، تفيد بأنه وضع الرسالة الموجهة إلى إرنست في صندوقه، وأنها قد اختفت بالفعل، وأنه سيرسلها فورًا إذا ورد إليه أي رد.

بعد بضعة أيام، تلقيت رسالة موجهة بخط يد مجهول، وعند فتحها، اكتشفت أن رسالتي إلى إرنست لم تُفتح على ما يبدو، وكان اسم "إرنست" على الظرف مشطوبًا، واسم رسالتي مكتوبًا أسفله بقلم رصاص. فحصنا أنا وصديقي الختم مرة أخرى بالمجهر، ولم نعثر على أي دليل على أن أحدًا قد تلاعب بالرسالة، واتفقنا على استحالة فتحها. ومع ذلك، عند فتحها، اكتشفتُ أن الرسالة التي كتبتها إلى السيد قد اختفت. كل ما وجدتُه بداخلها هو رسالتي الخاصة إلى إرنست، مع بضع كلمات بخط يده المعروف مكتوبة على صفحتها البيضاء، مفادها أن رسالتي قد سُلّمت إلى السيد العظيم كما ينبغي، وأنه إذا ما اعتُبرتُ أهلاً لتلقي ردٍّ في المستقبل، فسيُحضرها إرنست إليّ بكل سرور.

انتظرتُ بضعة أشهر، لكن لم يأتِ رد، وكلما ذهبتُ إلى جلسات إجلينتون الروحية وصادفتُ إرنست، كنتُ أسأله دائمًا متى يُمكنني توقع ردّي.

17

كان يُجيب دائمًا بأن رسالتي قد سُلّمت كما ينبغي، لكن لم يُقال شيء بعد بشأن الرد، وأنه لا يستطيع فعل المزيد. بعد ستة أشهر، تلقيتُ ردًا، ولكن ليس عن طريق إرنست، وفيه ذكر المعلم أنه على الرغم من أنه لم يتلقَّ الرسالة (وكما أشار، ليس من المرجح أن يتلقاها، بالنظر إلى طبيعة الرسول)، إلا أنه كان على علم بما كتبتُه، وشرع الآن في الرد عليه.

سيكون من الضروري الآن شرح رده، والخطوات التي اتخذتُها بناءً عليه؛ ولكن قبل أن أجعل ذلك مفهومًا، يجب أن أتناول بعض الأحداث الأخرى التي وقعت في هذه الأثناء بينما كنتُ أنتظر على أمل تلقي ذلك الرد

الفصل الثالث

العمل العملي

بطبيعة الحال، بمجرد أن ترسخت في ذهني المبادئ الأساسية للثيوصوفية، كما كنا نعرفها آنذاك، ووضعت نصب عينيّ فكرة السعي، مهما كانت المسافة في المستقبل، إلى الاقتراب من أقدام المعلم، أصبحتُ قلقًا بشأن ما إذا كان بإمكاني القيام بشيء ما للمساعدة في العمل العملي للجمعية. طرحتُ هذا السؤال على السيد سينيت، فردّ بفتح درج كبير مليء بالرسائل، وقال: "هذه كلها استفسارات حول الثيوصوفية؛ تنهال عليّ يوميًا من جميع أنحاء العالم؛ أكافحها بصعوبة بالغة، وأجيب على بعضها كل يوم؛ لكنني عاجز تمامًا عن مواجهة هذا السيل. أنا متأخرٌ بالفعل إلى هذا الحد، ولن أتجاوز هذا التراكم أبدًا، لأن كومة المتأخرات تتزايد باطراد يومًا بعد يوم. إذا كنتَ مستعدًا لتولي مسؤولية هذه المجموعة الصغيرة، والإجابة عليها بأفضل ما تستطيع، فستقدم حقًا خدمة جليلة لعدد كبير من الناس".

اعترضتُ بالطبع بأنني لا أعرف ما يكفي بعد لأتولى منصب شارح العقيدة. لكنه أجاب: "لقد قرأتَ جميع الكتب، وحضرتَ جميع الاجتماعات تقريبًا؛ وأنا متأكد من أنكَ تعرف من التعليم بقدر ما أعرفه أنا. علاوة على ذلك، فالأمر إما أن تكون كذلك أو لا تكون. فمع كل العمل الآخر الذي عليّ القيام به، لن أتمكن أبدًا من التعامل معها؛ بينما يمكنكَ، في عزلة أبرشيتك الريفية، أن تتعامل مع بعضها على الأقل؛ وفي النهاية، يمكننا دائمًا التشاور بشأن أي نقاط معقدة قد تطرأ".

كان محقًا في قوله إنني بذلتُ كل ما في وسعي لأتعرف على هذا التعليم الجديد الرائع. لقد قرأتُ كتابيه، ليس مرة واحدة، بل مرات عديدة، وفي كل مرة، على ما أعتقد، أُقدّر قيمتهما أكثر فأكثر، وأكتسب فهمًا أعمق للأفكار الواردة فيهما. لذلك ملأتُ حقيبة سفر بتلك الرسائل (كان هناك 437 رسالة) وأخذتها إلى هامبشاير. تعاملتُ مع المهمة بحماس - أتذكر أنني لم أكن أنام إلا أربع ساعات كل ليلة - وفي النهاية، تمكنتُ من إنجازها. كانت مهمة شاقة، إذ لم تكن هناك آلات كاتبة في تلك الأيام، فكان لا بد من كتابة كل كلمة من تلك الآلاف بخط اليد بمشقة.

كانت بعض الأسئلة سهلة، وبعضها الآخر صعبًا؛ وفي كثير من الحالات، كانت الشروحات المطولة ضرورية، لأن السائل بدا وكأنه قد فهم التعليمات بشكل خاطئ؛ لكنني أعتقد أنني بذلتُ قصارى جهدي في ذلك. بالطبع، تلقيتُ سيلًا من الردود، حتى أن ذلك الدرج المليء بالرسائل شغل معظم وقت فراغي لعدة أشهر. أستطيع القول إن عددًا لا بأس به من الأعضاء الجدد انضموا إلى الجمعية نتيجةً لتلك المراسلات، كما أضفتُ الكثير إلى قائمة أصدقائي - وكذلك إلى رصيدي من المعرفة الثيوصوفية، فليس هناك طريقة أفضل لتعلم موضوع ما بعمق من محاولة تعليمه لشخص آخر. الدكتورة كينغسفورد

دعوني أنتقل من هذه التفاصيل التافهة إلى حادثة بالغة الأهمية - لقائي الأول مع السيدة بلافاتسكي. ولكن حتى قبل أن أتمكن من وصف ذلك، لا بد لي من تقديم بضع كلمات لشرح أولي.

مع أن الدكتورة آنا كينغسفورد كانت رئيسة محفل لندن، إلا أنها لم تكن على توافق تام مع التعاليم التي كان أعضاؤها يدرسونها. فقد وصلت معلومات السيد سينيت إليه في شكل شرقي من معلمين شرقيين، وإجابةً

على سلسلة من الأسئلة العشوائية التي طرحها؛ بينما ما علّمته الدكتورة كينغسفورد، عرفته من خلال ذكرياتها الشخصية لما تعلمته في حياة سابقة.

كان الاتفاق في الأساسيات ملفتًا للنظر، لكن شكل التعليم كان مختلفًا تمامًا، ولكل شكل مصطلحاته الخاصة، والتي لم تكن قابلة للتبادل دائمًا. عادةً ما كان السيد سينيت يلقي خطابًا أو يُدلي ببيان في اجتماعاتنا؛ لكن قبل أن يُسمح لنا بمناقشته أو طلب مزيد من المعلومات حول النقاط المشكوك فيها، كانت الدكتورة كينغسفورد تُصرّ دائمًا على إعادة صياغة المسألة برمتها بأسلوبها الخاص ومن وجهة نظرها. بالنسبة لجميعنا تقريبًا، كان البيان الشرقي أسهل فهمًا من البيان الهرمسي؛ وبدا هذا التعقيد غير الضروري لعقولنا المتحمسة أمرًا لا يُطاق، لذا استقبلنا نقاشات الدكتورة كينغسفورد المطولة بقدر من نفاد الصبر. لم تكتفِ بعرض قضيتها، بل كادت أحيانًا أن تُلقي بانتقادات لاذعة على عرض السيد سينيت، وحتى على الأساتذة الذين أصدروه. ومن المفهوم بسهولة أن ذلك أثار سخطًا كبيرًا في نفوس الأعضاء. في إحدى المرات، أصدر المحفل قرارًا يُعرب عن أسفه للموقف المُتبنا في ورقة كتبتها؛ وقد خلق الأمر برمته شعورًا غير مرغوب فيه بالتوتر. بل لقد ذهبنا إلى حد نشر بعض الكتيبات التي ذكرت فيها القضايا المتعارضة؛ وحتى سوامي ت. سوبا راو، البعيد في الهند، شارك في المناقشة. كانت هذه الظروف لا تزال قائمة عندما وصل العقيد أولكوت والسيد موهيني موهين تشاتيرجي من الهند، وانقسم المحفل عمليًا إلى حزبين غير متكافئين تمامًا، لأن مؤيدي الدكتورة كينغسفورد الوحيدين كانوا عمها السيد ميتلاند وبعض الأصدقاء الشخصيين الذين أحضرتهم عندما انضمت. لو كانت السيدة بلافاتسكي نفسها معنا، لربما كانت قد حسمت النزاع على الفور؛ ولكن على الرغم من أنها غادرت الهند مع العقيد أولكوت، فقد مرضت مرضًا خطيرًا في باريس، وكان من المفترض أنها في خطر كبير.

وصلنا إلى نهاية سنتنا المالية، وظهرت مسألة انتخاب رئيس للأشهر الاثني عشر القادمة. أعتقد أن الرغبة شبه الإجماعية للمحفل كانت أن يكون السيد سينيت نفسه زعيمه الاسمي والفعلي. لكنه لم يكن مستعدًا لقبول المنصب، لأنه عبّر في توزيع الكتيبات عن موقفه القوي نوعًا ما ضد الدكتور كينغسفورد، ولم يكن يرغب في نقل هذا العداء شبه الشخصي إلى سياسات المحفل. عندما حلّت ليلة الانتخاب، اقترح السيد ميتلاند إعادة تعيين الدكتور كينغسفورد، لكنه لم يجد سوى عضو أو اثنين يدعمانه، مما أثار انزعاج الدكتور كينغسفورد الشديد. ثم نهض السيد سينيت واقترح السيد ج. ب. فينش، وهو محامٍ في لينكولنز إن، وكان سابقًا كبير ضباط الشرطة في كامبريدج. ولأنه رجلٌ كفؤ ولطيف، كان يتمتع بشعبية كبيرة بين الأعضاء، وفي الواقع، عُقد ذلك الاجتماع في غرفة طويلة في مكتبه في لينكولنز إن. انتُخب على الفور بأغلبية ساحقة، ثم عيّننا السيد سينيت سكرتيرًا، وبدأنا أعمال المساء. مع ذلك، بدا واضحًا أن الدكتورة كينغسفورد غير راضية عن نتيجة الانتخابات، وكانت مقاطعاتها المستمرة أكثر إزعاجًا من أي وقت مضى. كان الرئيس المؤسس نفسه في الرئاسة، لكنه لم يكن يعرف تمامًا كيف يتعامل مع السيدة، وكان الاجتماع يمضي ببطء وبلا جدوى. كانت القاعة، كما ذكرت، طويلة، وكان الباب الذي دخلنا منه في أحد جوانبها، ولكن في نهايتها تقريبًا بعيدًا عن المنصة. كانت القاعة مليئة بمقاعد استُؤجرت مؤقتًا لهذا الغرض. والآن، حدث أنني وصديقي السيد فارلي تأخرنا بضع دقائق، ودخلنا القاعة بعد بدء الإجراءات مباشرة. فجلسنا على مقعد فارغ مقابل ذلك الباب مباشرة، ولم يكن هناك سوى عضوين أو ثلاثة في جوارنا المباشر، على الرغم من أن الجزء العلوي من القاعة كان مكتظًا. كان العقيد أولكوت وموهيني يبذلان قصارى جهدهما لاستخلاص شيء معقول ومفيد من نقاش مُرهق وغير مُجدٍ، وأظن أننا في الطرف الآخر من الغرفة لم نكن نُولي اهتمامًا كبيرًا للمجريات؛

عندما فُتح الباب المقابل لنا فجأةً وبسرعة، ودخلت سيدةٌ قويةٌ ترتدي ملابس سوداء بسرعة وجلست على الطرف الخارجي من مقعدنا.

أُقابل مؤسستنا

جلست تُنصت إلى الجدل على المنصة لبضع دقائق، ثم بدأت تُبدي علامات واضحة على نفاد الصبر. ولأنه لم يبدُ أن هناك أي تحسن في الأفق، قفزت من مقعدها، وصاحت بنبرةٍ عسكريةٍ آمرةٍ بكلمةٍ واحدةٍ "موهيني!"، ثم خرجت مُباشرةً من الباب إلى الممر. اندفع موهيني المهيب والوقار مسرعًا عبر تلك الغرفة الطويلة بأقصى سرعة، وما إن وصل إلى الممر حتى ألقى بنفسه على وجهه على الأرض عند قدمي السيدة ذات الرداء الأسود. نهض كثيرون في حيرة، لا يدرون ما يحدث؛ ولكن بعد لحظة، هرع السيد سينيت نفسه إلى الباب، وخرج وتبادل بضع كلمات، ثم عاد إلى الغرفة، ووقف على طرف مقعدنا وقال بصوت جهوري الكلمات المصيرية: "دعوني أقدم لكم محفل لندن ككل - السيدة بلافاتسكي."!

كان المشهد لا يوصف؛ فقد تجمع الأعضاء، في غاية السعادة والرعب في آن واحد، حول مؤسستنا العظيمة، بعضهم يقبل يدها، والعديد منهم راكعين أمامها، واثنان أو ثلاثة يبكون بكاءً هستيريًا. بعد بضع دقائق، تخلصت منهم بفارغ الصبر، وقادها العقيد أولكوت إلى المنصة، وبعد أن أجابت على بعض الأسئلة، طلبت منه تفسيرًا للطابع غير المرضي للاجتماع الذي انضمت إليه فجأة. شرح العقيد والسيد سينيت الأمر على أكمل وجه؛ لكنها أمرتهم على الفور بإنهاء الاجتماع، ودعت المسؤولين إلى مقابلتها على الفور في مؤتمر. غادر الأعضاء في حالة من الإثارة الشديدة، وانتظر المسؤولون السيدة بلافاتسكي في إحدى غرف المعيشة المجاورة. والآن، بما أنني دُعيت لقضاء الليلة في منزل السيد سينيت، فقد اضطررت، مع أنني عضو جديد وغير مهم، إلى البقاء مع كبار الشخصيات؛ وهكذا حدث أنني كنت شاهدًا على مشهدٌ لافتٌ تلا ذلك. طالبت السيدة بلافاتسكي بتقريرٍ كاملٍ عن حالة المحفل، وعن الخلافات بين السيد سينيت والدكتور كينغزفورد؛ وبعد أن استلمت التقرير، صافحتهما كما لو كانا تلميذين مشاغبين، وأخيرًا جعلتهما يصافحاننا جميعًا كعلامةٍ على تسوية خلافاتهما وديًا! ومع ذلك، أمرت الدكتور كينغزفورد بتشكيل محفلٍ خاصٍ بها، تُناقَش فيه العقائد من وجهة نظرها حصريًا. نُفِّذ هذا الأمر في غضون أيامٍ قليلة، وحمل الفرع الجديد اسم المحفل الهرمسي. على حدِّ ذاكرتي، لا أعتقد أنه كان يضمّ سوى عددٍ قليلٍ جدًا من الأعضاء، وأظنُّ أنه سرعان ما اندثر. رافقت السيدة بلافاتسكي والعقيد أولكوت مجموعتنا إلى منزل السيد سينيت، ومكثنا هناك حتى ساعة متأخرة من الليل، حيث أعربت السيدة بلافاتسكي عن إدانتها الشديدة لعدم كفاءة المسؤولين في إدارة الاجتماع بشكل أفضل. قُدِّمتُ إليها بالطبع، وانتهز السيد سينيت الفرصة ليخبرها برسالتي إلى مجلة "لايت" الروحانية حول موضوع إنكار الروح إرنست لأسيادنا.

عندما سمعت تلك القصة القصيرة، نظرت إليّ بتمعّن شديد وعلقت:

23

"لا أُقدّر رجال الدين كثيرًا، لأني أجد معظمهم منافقين ومتعصبين وأغبياء؛ لكن ذلك كان تصرفًا شجاعًا، وأشكرك عليه. لقد بدأت بداية جيدة؛ ربما يمكنك فعل شيء ما بعد ذلك".

يمكنك أن تكون متأكدًا تمامًا من أنني بعد ذلك لم أضيع فرصة لحضور أي اجتماع حضرته؛ ورغم أنني كنتُ خجولاً للغاية من أن أدفع نفسي للأمام وأطرح الأسئلة، إلا أنني كنتُ أستمع بشغف إلى كل كلمة تخرج من شفتيها، وأعتقد أنني بهذه الطريقة تعلمتُ الكثير.

أتمنى لو أستطيع أن أنقل لقرائي فكرةً وافيةً عما كانت عليه بالنسبة لي ولنا جميعاً ممن حظينا بفرصة التواصل معها عن كثب - عن الانطباع الهائل الذي تركته فينا، وعن المودة العميقة والحماس الشديد الذي أثارته.

لم يبقَ الآن سوى قلة منا ممن عرفوها في جسدها المادي، وأعتقد أن من واجبنا وشرفنا في آنٍ واحد أن نحاول نقل بعض الأفكار إلى إخواننا الأصغر سناً على الأقل، والتي يمكنهم من خلالها بناء صورتهم الذهنية عن مؤسستنا العظيمة، لأن كرمتهم لم تسمح لهم برؤيتها في الواقع.

الفصل الرابع

مدام بلافاتسكي

دعوني أحاول للحظة أن أنظر إليها كما ينظر إليها شخص غريب، إن أمكنني ذلك. بصراحة، لا أعتقد أنني أستطيع فعل ذلك، لأني أحبها حبًا عميقًا، وأُجلها أكثر من أي شخص آخر، باستثناء أساتذتها العظام وأساتذتي. لذا ربما لا أستطيع النظر إليها بموضوعية من الخارج، لكنني على الأقل أحاول ذلك. لقد رأيت العديد من الغرباء يقتربون منها. سأحاول أن أخبركم بما رأيته ينعكس في وجوههم وعقولهم. أول ما يلفت انتباههم جميعًا، أول ما يلفت انتباهي دائمًا، هو القوة الهائلة التي كانت تشعّ بها. في اللحظة التي يدخل فيها المرء إلى حضرة مدام بلافاتسكي، يشعر بأنه أمام شخص ذي شأن - شخص قادر على فعل أشياء عظيمة، لا شك أنه واحد من أعظم رجال العالم؛ وأعتقد أن أحدًا منا لم يفقد هذا الشعور أبدًا. لا شك أن هناك الكثير ممن اختلفوا مع ما قالته؛ وكان هناك آخرون منا تابعوها بحماس. كانت شخصية قوية لدرجة أنني لم أرَ قط أحدًا من بين الآلاف الذين قابلوها لا مباليًا بها. بعضهم كرهها بشدة، لكن الكثيرين أعجبوا بها بشدة. كثيرون كادوا ينبهرون بها؛ لكن من عرفوها عن قرب أحبوها بعاطفة لا تلين، وما زالوا يحبونها. لقد رأيت مؤخرًا بعضًا ممن عرفوها جيدًا، ويبدو أن ذكراها في كل واحد منهم لا تزال حية كما هي في قلبي، ولم نتوقف أبدًا عن حبها. كان الانطباع الذي تركته لا يوصف. أستطيع أن أفهم جيدًا أن البعض كانوا يخشونها. كانت تنظر من خلال أحدهم مباشرة؛ من الواضح أنها رأت كل ما في داخله - وهناك رجال لا يحبون ذلك. لقد سمعتها أحيانًا تكشف حقائق محيرة للغاية عن أولئك الذين تحدثت إليهم. أقول إن ذلك الشعور الطاغي بالقوة كان أول ما ينتاب المرء؛ ومن الصعب تحديد ما تلا ذلك، ولكن كان هناك شعور بشجاعة لا هوادة فيها، كان منعشًا للغاية، وصراحة تكاد تصل إلى حد الوقاحة، لكنها كانت تُعرب عن رأيها وشعورها بدقة؛ وهناك، مرة أخرى، أناس لا يُعجبهم ذلك، ويجدون مواجهة الحقيقة العارية صدمة لهم؛ ولكن هذا ما قدمته لهم. كانت القوة الهائلة الانطباع الأول، وربما كانت الشجاعة والصراحة الانطباع الثاني.

أعتقد أن معظمنا سمع أنها كثيرًا ما اتُهمت بالخداع من قِبل أولئك الذين كرهوها أو خافوها. اعتبرها أعداؤها مذنبة بالاحتيال والتزوير وجميع أنواع الأمور غير العادية. أولئك الذين يرددون مثل هذه الافتراءات في يومنا هذا هم جميعًا أناس لم يروها قط، وأجرؤ على القول إنه لو كان أي ممن يتحدثون عنها الآن موجودًا معها لمدة ساعة لأدركوا عبث افتراءاتهم. أستطيع أن أفهم أنه ربما قيلت أشياء أخرى ضدها - على سبيل المثال، أنها كانت تتجاهل تحيزات الناس أحيانًا؛ ربما يكون من الجيد للناس أن تُكشف تحيزاتهم من حين لآخر؛ لكن اتهامها بالتزوير أو الخداع كان حماقة مطلقة لأي منا ممن عرفوها. حتى أنه قيل إنها كانت جاسوسة روسية. (كان هناك خوف كبير في ذلك الوقت من أن روسيا لديها نوايا للاستيلاء على الهند). إذا كان هناك على هذه الأرض شخص غير مناسب على الإطلاق لعمل جاسوس، فهو السيدة

بلافاتسكي. لم يكن بإمكانها الاستمرار في الخداع اللازم لمدة عشر دقائق؛ كانت ستكشف كل شيء بصراحتها شبه الوحشية. إن فكرة الخداع من أي نوع فيما يتعلق بالسيدة بلافاتسكي أمر لا يمكن تصوره لأي شخص عرفها، وعاش معها في نفس المنزل، وعرف كيف كانت تتحدث بصراحة عما تفكر فيه وتشعر به بالضبط. كانت صدقها المطلق من أبرز سمات شخصيتها المعقدة بشكل رائع.

أعتقد أن الشيء التالي الذي لا بد أنه أثار إعجاب الغريب هو تألق عقلها. كانت بلا استثناء أفضل محاورة قابلتها في حياتي - وقد رأيت الكثيرين. كانت تتمتع بموهبة رائعة في الرد المباشر؛ ربما كانت تمتلكها بشكل مفرط. كانت أيضًا غنية بالمعرفة في جميع أنواع المواضيع غير المألوفة؛ أعني مواضيع مرتبطة بشكل أو بآخر بخط تفكيرنا - ولكن من الصعب إدراك مدى اتساع نطاق الفكر الذي ندرجه تحت عنوان الثيوصوفية. إنها تتضمن معرفة شيء ما، على الأقل، من جوانب متعددة ومختلفة تمامًا. كانت السيدة بلافاتسكي تمتلك هذه المعرفة. مهما كان ما قد يظهر في سياق الحديث، كانت السيدة بلافاتسكي دائمًا لديها ما تقوله عنه، وكان دائمًا شيئًا مميزًا.

مهما كانت، لم تكن أبدًا عادية. كانت دائمًا لديها شيء جديد، ملفت للنظر، مثير للاهتمام، وغير عادي لتخبرنا به. لقد سافرت على نطاق واسع، لا سيما في مناطق غير معروفة من العالم، وكانت تتذكر كل شيء.

، على ما يبدو، حتى لأبسط حادثة وقعت لها. كانت مليئة بجميع أنواع الحكايات المتألقة، راوية قصص رائعة، تجيد سرد قصتها وإيصال فكرتها. كانت شخصية مميزة في هذا الصدد، كما هو الحال في كثيرين غيرهم.

وبعد قليل، وبحديث أكثر حميمية، واجه المرء المحور الرئيسي في حياتها - إخلاصها الشديد لسيدها. كانت تتحدث عنه بإجلال جميل - ويزداد جمالاً من حقيقة أنه لا يمكن وصف السيدة بلافاتسكي بأنها ذات طبيعة إجلال بالضبط.

على العكس من ذلك، كانت ترى دائمًا الجانب الفكاهي في أي شيء وكل شيء. وبصرف النظر عن هذه الحقيقة المركزية العظيمة، كانت أحيانًا تمزح حول أشياء قد يعتبرها البعض منا مقدسة؛ لكن ذلك كان لأن صراحتها المطلقة جعلتها تكره كل ما يُشبه الخداع أو التظاهر، وهناك الكثير مما يُسمى تبجيلًا، وهو في الحقيقة مجرد خواء ذهن، وإن كان أقرب إلى الاحترام.

ما وصفته بالاحترام البرجوازي كان أشبه بخرقاء حمراء بالنسبة للسيدة بلافاتسكي، لأنه غالبًا ما يكون هناك الكثير من النفاق في الحفاظ على المظاهر الخارجية بينما توجد في الداخل أفكار ومشاعر غير محترمة على الإطلاق. في مثل هذه الحالات، مزقت الحجاب وكشفت عن الأشياء التي تحتها، والتي لم تُرضِ الضحية التعيسة؛ وبسبب هذه الصفة، ما كان لأحد أن يُطلق عليها اسم شخص مُبجل. ولكن في اللحظة التي تحدثت فيها عن سيدها، سقط صوتها في نبرة رهبة مُحبة، وكان من الممكن للمرء أن يرى أن شعورها تجاهه كان حياتها الحقيقية. كانت ثقتها المطلقة به، وحبها له وتبجيلها له، على عكس عدم تبجيلها له عادةً، بديعة المنظر.

27

أعتقد أن هذه كانت أبرز الحقائق التي قد يراها الغريب فيها. قد يقتبس صغارنا، عندما يكبرون ويقرأون كتبها ويدركون بعض ما ندين بها لها، أقوالها ويقولون كم كانت رائعة؛ ومن المحتمل جدًا أن يلتقوا بأشخاص يخبرونهم أنها انكشفت، ووُجد أنها مارست الاحتيال. فليسألوا هؤلاء المشوهين: "هل كنت تعرفها؟"

"لا،" سيجيبون، "بالطبع لم أكن أعرفها".

أنتم الذين قرأتم هذا يمكنكم الرد: "لقد قرأتُ روايةً كتبها شخصٌ يعرفها جيدًا، وقد قال إن جميع هذه القصص باطلةٌ تمامًا، وإنه من المستحيل تمامًا أن تكون قد ارتكبت أيًا من تلك الأفعال الاحتيالية؛ ولا يُمكنها أن تخدع الناس بالطريقة التي ذُكرت بها".

أستطيع أن أذكر لكم العديد من الأمثلة التي اتُهمت فيها بالخداع، ويمكنني أن أخبركم بالضبط ما حدث بالفعل، وأؤكد لكم أنه لم يكن هناك أي احتيال في الأمر. هذا كل ما أعرفه بنفسي. قد تسمعون الكثير عن تقريرٍ معينٍ أعده مفوضٌ في جمعية الأبحاث النفسية، الذي ذهب إلى الهند للتحقيق في قضيتها. إذا نقل إليك أحدٌ ذلك، فأخبره أنني، وأنا ما زلت على قيد الحياة، كنت في أديار عندما خرج ذلك الشاب (وآسفٌ لقول ذلك، كان شابًا مغرورًا جدًا) ليُقدّم تقريره، ويمكنني أن أخبرك ببعض الأمور عن ذلك التقرير التي تُظهر عدم موثوقيته، مع أنني متأكدٌ من صدق نيته. قيل لي إنه بعد سنواتٍ عديدة أقرّ لرئيسنا الحالي بأنه لو كان يعرف عن الأمور الروحانية عام ١٨٨٤ بقدر ما كان يعرف وقت خطابه، لكان تقريره مختلفًا تمامًا.

لقد عارض رأي هـ. ب. ب. فيما يتعلق بالرسائل الواردة من الأساتذة، قائلًا إنها كتبتها بنفسها. لقد تلقيتُ بنفسي رسائل كهذه عندما كانت على بُعد آلاف الأميال. رأيتها تصل في حضورها، ورأيتها تصل عندما كانت بعيدة، وأعلم بدليلٍ قاطع أنها لم تكتب تلك الرسائل. أقول لكم هذا لأنني أعتقد أنه من المهم لكم أن تتمكنوا من القول بأنكم رأيتم أو عرفتم شخصًا مستعدًا للإدلاء بشهادة شخصية تفيد بعدم وجود احتيال في مثل هذه الأمور. إن شهادة شاهد عيان واحد تفوق تحيز الكثيرين الذين، لعدم حضورهم، يسمعون هذه الأمور من مصدر ثالث أو ثالث عشر.

تذكروا، من الناحية الإنسانية، أنه لولا السيدة بلافاتسكي لما وُجدت الجمعية الثيوصوفية، ولما عُرضت كل هذه التعاليم المجيدة على شعوب الغرب. ربما أقول هنا أكثر مما ينبغي، لأن العظماء الذين يقفون وراءها بذلوا جهودًا متزامنة من خلال قناتين، إحداهما السيدة بلافاتسكي، والأخرى الدكتورة آنا كينغسفورد. كنت أعرف كليهما. لا يسعني إلا أن أقول إنه على الرغم من أن عرض الدكتورة كينغسفورد كان رائعًا ومثيرًا للاهتمام، إلا أنه لم يترك انطباعًا كبيرًا، ولم ينتشر في العالم إلى حد كبير؛ في حين أن وجود الجمعية الثيوصوفية يُظهر ما قدمه عرض السيدة بلافاتسكي.

حتى الجمعية الثيوصوفية لا تُظهر سوى جزء صغير جزء من عملها؛ فمقابل كل عضو في هذه الجمعية، قد يكون هناك عشرة أو اثنا عشر أو عشرون من غير الأعضاء ممن قرأوا الكتب واكتسبوا معرفة ثيوصوفية واسعة. لذا انتشر تعليمها انتشارًا واسعًا يتجاوز حجم جمعيتها. هذا ما فعلته السيدة بلافاتسكي لنا وللعالم، ولهذا ندين لها بحبنا وامتناننا. كانت تقول لنا دائمًا: "هذه هي الحقائق؛ لكن لا تصدقوها لأني أقول ذلك. استخدموا عقولكم وحسك السليم؛ نقّذوا التعليم، وأثبتوه بأنفسكم. لا تعترضوا أو تتذمروا أو تنتقدوا؛ اعملوا."

نحن الذين قبلنا تحديها، نحن الذين اتبعنا نصيحتها، سرعان ما وجدنا أن تصريحاتها كانت مبررة، وأن تعاليمها كانت صحيحة. لذا، لكم، يا أتباعها في يومنا هذا، أقول: "اذهبوا وافعلوا مثلي". احرصوا جميعًا على ألا ننساها أبدًا - في يوم اللوتس الأبيض، كل عام، كما رغبت، نحتفل بهذه المناسبة. لم تطلب أن يتحدث عنها أحد، مع أن حبنا وإجلالنا يدفعاننا دائمًا إلى ذلك. لم تطلب حتى قراءة كتبها؛ بل طلبت أن يُقرأ شيء من البهاجافاد غيتا ونور آسيا، وهذا ما يُفعل دائمًا في كل محفل ثيوصوفي حتى يومنا هذا، وآمل أن يظل كذلك دائمًا، وألا ندع ذكرى مؤسستنا تغيب عن أذهاننا. أود منكم أن تدركوا هذه الحقيقة، وأن تُخلّدوها في أذهانكم دائمًا، أن كل ما لدينا وكل ما تعلمناه، مهما كان شكله، هو في الحقيقة عائدٌ للسيدة بلافاتسكي

الفصل الخامس

الرسالة المُجابة

يُذكر أنني ذكرتُ في فصلٍ سابق رسالةً وجهتها إلى المعلم كوثومي، مُسلّمًا إياها إلى روحٍ تُدعى إرنست لتسليمها. تلقيتُ ردًا في النهاية - ولكن ليس عن طريق إرنست، وليس حتى عشية سفر السيدة بلافاتسكي إلى الهند. يُمكن العثور على نص رسالة المعلم إليّ في كتاب السيد جيناراجاداسا "رسائل من سادة الحكمة"، صفحة ٢٧. أخبرني أنه ليس من الضروري أن أكون في الهند خلال سنوات الاختبار السبع - إذ يُمكن للمُرشد أن يُكملها في أي مكان. وحذّرني من أنني، بصفتي كاهنًا في الكنيسة المسيحية، أتحمل جزءًا من الكارما الجماعية لذلك الجسد، وألمح بوضوح إلى أن في تلك الكارما الكثير مما هو شريرٌ للغاية. اقترح عليّ الذهاب إلى أديار لبضعة أشهر، لأرى إن كان بإمكاني العمل مع موظفي المقر الرئيسي، وأضاف الملاحظة المهمة: "من يُقصّر سنوات الاختبار عليه أن يُضحّي من أجل الثيوصوفية". واختتم رسالته بالكلمات التالية: "تسألني عن القواعد التي يجب عليك مراعاتها خلال فترة الاختبار هذه، ومتى تأمل أن تبدأ، فأجيب: أنت تملك صنع مستقبلك بين يديك، كما هو موضح أعلاه، وكل يوم قد تنسج خيوطه. لو طلبت منك القيام بشيء أو بآخر، فبدلاً من مجرد تقديم النصح، سأكون مسؤولاً عن كل نتيجة قد تنجم عن هذه الخطوة، ولن تكتسب إلا ميزة ثانوية. فكّر، وسترى أن هذا صحيح. لذا، ألقِ بنفسك القرعة في حضن العدالة، ولا تخشَ أبدًا إلا أن يكون ردها صحيحًا تمامًا. إن مرحلة التلمذة هي مرحلة تعليمية واختبارية في آن واحد، والمعلم وحده هو من يقرر ما إذا كانت ستنتهي بالقبول أو الفشل. فالمعلمون، انطلاقًا من فكرة خاطئة عن نظامنا، غالبًا ما يترقبون الأوامر وينتظرونها، مُضيعين وقتًا ثمينًا ينبغي استثماره في جهد شخصي. قضيتنا تحتاج إلى مبشرين، ومريدين، وعملاء، وربما حتى شهداء. لكنها لا تُلزم أي إنسان بأن يُقرر مصيره بنفسه.

31

فالآن، اختر مصيرك بنفسك - وليكن ذكر ربنا التاتاغاتا عونا لك على اتخاذ القرار الأفضل.

أردتُ أن أقول ردًا على هذا إن ظروفي كانت تمنعني من القدوم إلى أديار لمدة ثلاثة أشهر، ثم العودة إلى العمل الذي كنتُ منخرطًا فيه آنذاك؛ لكنني كنتُ مستعدًا تمامًا للتخلي عن هذا العمل تمامًا، وتكريس حياتي بالكامل لخدمته. بعد أن خذلني إرنست بشكل واضح، لم أجد طريقة لإرسال هذه الرسالة إلى المعلم سوى إيصالها إلى السيدة بلافاتسكي، وبما أنها ستغادر إنجلترا في اليوم التالي إلى الهند، أسرعتُ إلى لندن لرؤيتها.

بصعوبة بالغة، أقنعتها بقراءة الرسالة، إذ قالت بحزم إن مثل هذه الرسائل موجهة فقط إلى المتلقي. إلا أنني اضطررتُ للإصرار، وفي النهاية قرأتها وسألتني عما أريد قوله ردًا. أجبتُ بما سبق، وسألتها كيف يُمكن نقل هذه المعلومات إلى المعلم. أجابت بأنه يعلمها مُسبقًا، مُشيرةً بالطبع إلى علاقتها الوثيقة به، بحيث إن ما كان في وعيها كان في وعيه أيضًا عندما أراده.

ثم طلبت مني أن أنتظر بجانبها، وألا أتركها لأي سبب. التزمت بهذا الشرط تمامًا، حتى أنها جعلتني أرافقها إلى غرفتها عندما كانت ترتدي قبعتها، وعندما احتاجت إلى سيارة أجرة، رفضت السماح لي بمغادرة الغرفة والتوجه إلى الباب لأصفّر لها. لم أفهم حينها غرض ذلك إطلاقًا، لكنني أدركت لاحقًا أنها أرادت أن أتمكن من القول إنها لم تغب عن نظري لحظة واحدة بين قراءتها لرسالتي من المعلم وتلقي ردي عليها. أتذكر بوضوح، كما لو كان بالأمس، كيف ركبتُ معها في عربة هانسوم تلك، والحرج المُخجل الذي شعرتُ به، والذي يعود جزئيًا إلى شرف القيام بذلك، وجزئيًا إلى خوفي من أن أسبب لها إزعاجًا شديدًا، فقد حُطمتُ جانبيًا في زاوية صغيرة من المقعد، بينما كان جسدها الضخم...1

يضيف السيد جيناراجاداسا الملاحظة التالية: "ذكرى ربنا التاتاغاتا"، عبارةٌ مُلفتةٌ للغاية، لم تُفهم إلا بعد سنواتٍ طويلة من استلام الرسالة. إنها تُشير إلى أحداثٍ في حيواتٍ ماضيةٍ بعيدة، عندما رأى سي. دبليو. إل. الربَّ العظيم وجهًا لوجه. وكأن المعلم حاول بهذه الطريقة أن يتجاوز شخصية سي. دبليو. إل. مباشرةً إلى الأنا، التي كانت الحقائق العظيمة موجودةً في وعيها كأمورٍ معرفةٍ مباشرة. ٣٢

أثقلت جانبها من المركبة، حتى أن الينابيع كانت تُطحن طوال الرحلة. كان من المقرر أن يرافقها السيد والسيدة كوبر-أوكلي في رحلتها إلى الهند، وذهبتُ معها إلى منزلهما في وقت متأخر جدًا من تلك الليلة - في الواقع، أعتقد أنها كانت بعد منتصف الليل، لذا عليّ أن أقول إنها كانت في وقت مبكر جدًا من صباح اليوم التالي.

ظاهرتي الأولى

حتى في في الساعة الواحدة ظهرًا، اجتمع عدد من الأصدقاء المخلصين في غرفة السيدة أوكلي لوداع السيدة بلافاتسكي، التي جلست على كرسيها المريح بجانب المدفأة. كانت تتحدث ببراعة مع الحاضرين، وتلفّ إحدى سجائرها الخالدة، عندما فجأةً، ارتعشت يدها اليمنى نحو المدفأة بطريقة غريبة، ووجهت راحتها لأعلى. نظرت إليها بدهشة، كما فعلتُ أنا، إذ كنتُ أقف بالقرب منها، متكئًا بمرفقي على رف المدفأة: ورأى بعضنا بوضوح نوعًا من الضباب الأبيض يتشكل في راحة يدها ثم يتكثف في ورقة مطوية، ناولتها لي على الفور قائلة: "ها هي إجابتك". احتشد الجميع في الغرفة، بالطبع، لكنها أرسلتني إلى الخارج لأقرأها، قائلةً إنه يجب ألا أدع أحدًا يرى محتواها. كانت رسالة قصيرة جدًا وجاءت على النحو التالي:

بما أن حدسك قادك إلى الطريق الصحيح وأفهمك رغبتي في الذهاب إلى أديار فورًا، فقد أضيف المزيد.

كلما أسرعت في الذهاب كان ذلك أفضل. لا تضيع يومًا أكثر مما تستطيع مساعدته.

أبحر في الخامس من الشهر، إن أمكن. انضم إلى أوباسيكا2

تحياتي لك يا شيلا الجديدة.

في الإسكندرية. لا تدع أحدًا يعرف أنك ذاهب، ولتحمك بركة ربنا وبركتي الضعيفة من كل شر في حياتك الجديدة.

ك.ح.

أوامر المسيرة

33

في الأمور الخفية، الاستماع طاعة. غادرت السيدة بلافاتسكي لندن في وقت لاحق من نفس اليوم إلى ليفربول، حيث صعدت على متن سفينة إس.إس. كلان دروموند.

في هذه الأثناء، كنتُ أتجول بسرعة بين مكاتب البواخر سعياً للحصول على تذكرة سفر. لم يكن على متن الباخرة.P. and O ، التي كانت ستغادر في الخامس من الشهر، أي مقعد شاغر في أي درجة، فاضطررتُ على مضض للبحث عن مكان آخر. بعد استفسارات عديدة، كانت الفرصة الوحيدة المتاحة لي هي ركوب سفينة Messageries Mari-times s.s. Erymanthe من مرسيليا إلى الإسكندرية، وللقيام بذلك، كان عليّ مغادرة لندن ليلة الرابع من الشهر. أسرعتُ إلى هامبشاير لحزم أمتعتي وأمتعتي وترتيبات سفري النهائية؛ ويمكنني القول إنني لم أنم إلا بعد مغادرتي إنجلترا! كانت موهيني والآنسة فرانشيسكا أرونديل في محطة تشارينغ كروس لرؤيتي أغادر، ولتمني لي بصدق تمنياتهما الطيبة بالحياة الجديدة الغريبة التي كانت تلوح في الأفق. في الحجر الصحي

وصلتُ إلى مرسيليا كالمعتاد، لأجد أن هناك احتمالًا لتفشي الكوليرا في المدينة. صعدتُ على متن سفينة إريمانث، وأتذكر أن رحلتنا عبر البحر الأبيض المتوسط كانت شاقة نوعًا ما.

في تلك الرحلة، قرأتُ كتاب "البوذية الباطنية" للمرة العاشرة؛ كنا متعمقين في دراستنا آنذاك. عندما وصلنا الإسكندرية، اكتشفتُ، لشدة اشمئزازي، أنه بسبب شائعة الكوليرا في مرسيليا، اقترحت السلطات المصرية وضعنا جميعًا في الحجر الصحي لمدة خمسة أيام.

يمكنكم تخيل نفاد صبري، وخوفي من أن يتسبب التأخير في افتقادي للسيدة بلافاتسكي تمامًا. لم يسمحوا لنا بالبقاء في المدينة، بل نقلونا إلى ثكنة في الرملة، حيث فرضوا علينا جنيهًا إسترلينيًا واحدًا في اليوم مقابل سكن غير مُرضٍ على الإطلاق. بالطبع كنا جميعًا بخير، وكنا مقتنعين تمامًا أن الأمر برمته مجرد مسرحية هزلية، تُدار ببساطة لجني المال منا؛ وأظهرت ابتسامات المسؤولين المصريين العريضة تقديرهم التام للوضع.

عند نقطة اتصالنا الوحيدة بالعالم الخارجي، كان هناك سياج مزدوج ثقيل للغاية، تفصل أجزاؤه المكونة عن بعضها البعض مسافة خمسة ياردات تقريبًا. امتد ما يشبه سكة حديد خشبية صغيرة من أحد هذين السياجين إلى الآخر، وكان يُسحب صندوق بحبل في كل طرف منه ذهابًا وإيابًا لإحضار المؤن من الخارج أو لتسليم رسائلنا وأي سلع قد نرغب في شرائها. وُضع وعاء كبير من الماء في الصندوق، وأُمِرنا بإلقاء أي عملات معدنية نريد دفع ثمن مشترياتنا فيها، بينما كانت الرسائل التي نرسلها تُطعن في مكانين أو ثلاثة وتُبخّر بصرامة. كانت الإجراءات أكثر من سخيفة، وواصلنا المزاح مع المرافقين، مصرّين على أنه عند إرسال أي نقود، يجب رميها في الماء أيضًا!

بواسطة إحدى الرسائل الممزقة، تواصلتُ مع القنصل البريطاني وعلمتُ منه أن السيدة بلافاتسكي ورفاقها قد وصلوا في الموعد المحدد، لكنهم تابعوا رحلتهم إلى بورسعيد، حيث كانوا في انتظاري.

بمجرد أن أُطلق سراحنا من الحجز، توجهتُ إلى فندق أبات للاستحمام وتناول بعض الطعام الجيد، ثم استفسرتُ عن إمكانية العبور إلى بورسعيد. لم تكن هناك سكك حديدية في تلك الأيام، ووجدتُ أن فرصتي التالية كانت مرة أخرى لركوب الباخرة إيريمانث، التي كانت محتجزة أيضًا في الحجر الصحي مثلنا. كنا سنكون أكثر راحة بالتأكيد لو كان لديهم كان عليهم أن يتركونا على متنها، لكن بما أننا مسافرون إلى الإسكندرية، لم يفعلوا ذلك؛ وفي هذه الحالة، كانت الباخرة، بدلاً من الحكومة المصرية، ستأخذ جنيهنا الواحد يوميًا!

نلتقي مجددًا

أبحرنا في نفس المساء، ووصلنا إلى بورسعيد في صباح اليوم التالي، حيث جاء السيد أ. ج. كوبر-أوكلي لاستقبالي، وأخذني إلى فندق حيث وجدت السيدة بلافاتسكي والسيدة أوكلي جالستين على الشرفة. كانت آخر كلمة قالتها لي السيدة بلافاتسكي في لندن: "احرص ألا تخذلني"؛ والآن كانت تحيتها: "حسنًا يا ليدبيتر، لقد أتيتَ حقًا رغم كل الصعوبات". أجبتُ أنني أتيتُ بالطبع، وأنني عندما أقطع وعدًا أحرص أيضًا على الوفاء به؛ فأجابتني فقط: "أحسنتَ!" ثم انغمست في نقاشٍ جادٍّ - جميع النقاشات التي شاركت فيها السيدة بلافاتسكي كانت جادّةً دائمًا - والذي بدا واضحًا أنه قد قاطعه وصولي. مع أنها لم تقل أكثر من ذلك، إلا أنها كانت سعيدةً جدًا بقدومي، وبدا أنها اعتبرت وجودي ضمن حاشيتها بمثابة ورقةٍ في اللعبة التي كان عليها أن تلعبها. كانت عائدةً إلى الهند خصيصًا لدحض الافتراءات الخبيثة التي ينشرها مبشرو الكلية المسيحية،

35

وبدا أنها اعتبرت أن عودة رجل دينٍ من الكنيسة المُعترف بها معها، والذي تخلى عن منصبٍ جيدٍ في تلك الكنيسة ليصبح تلميذًا وتابعًا متحمسًا لها، كان حجةً لصالحها بطريقةٍ ما.

الفصل السادس

تغيير مفاجئ

انتهى فصلنا الأخير بلقائي بالسيدة بلافاتسكي في فندق ببورسعيد، حيث تمنيتُ بشوق أن ننتظر بسلام حتى وصول باخرة. لم أكن أعرف السيدة بلافاتسكي جيدًا آنذاك كما عرفتها لاحقًا، وإلا لشعرتُ بتفاؤل أقل. تسللتُ إلى غرفة نوم، وبحثتُ عن بضع عشرات من البعوض من بين ستائرها، وكنتُ أتطلع بشوق إلى فكرة المبيت. لكن بعد حلول الظلام بقليل، واتتني لمحات إلهام مفاجئة من تلك التي كثيرًا ما تأتيها من أعماق النفس. كانت عادةً ما تنسبها إلى من تُطلق عليهم اسم "الإخوة" - وهو مصطلح لم يقتصر على بعض الأساتذة، بل امتد إلى عدد من تلامذتهم. في هذه الحالة، أفسدت التلميحة التي تلقتها جميع خططنا تمامًا، إذ أُمرت بأنه بدلًا من انتظار سفينتنا البخارية بهدوء، علينا التوجه فورًا إلى القاهرة، حيث سنحصل على بعض المعلومات التي ستكون ذات فائدة كبيرة لها في التعامل مع خدمها الخونة، آل كولومب.

قارب الخديوي

في تلك الأيام، لم يكن هناك خط سكة حديد يمتد من بورسعيد، وكانت الطريقة الوحيدة للوصول إلى القاهرة هي السفر عبر قناة السويس حتى الإسماعيلية، ومن هناك يمكننا ركوب القطار إلى العاصمة. كانت الرحلة عبر القناة تتم في باخرة صغيرة تشبه إلى حد ما قاطرة، تحمل اسم قارب الخديوي. كانت تغادر بورسعيد كل ليلة عند منتصف الليل وتصل إلى الإسماعيلية في الصباح الباكر. على الرغم من اسمها الصارخ، إلا أنها ربما كانت أقذر وأقل السفن راحة التي صادفتها؛ ولكن بالطبع كان علينا أن نستغلها على أفضل وجه. في مؤخرة السفينة، كان هناك كوخ صغير مساحته حوالي عشرة أقدام مربعة، يُسمى المقصورة العامة، ومنه في الخلف، فُتح نوع من الخزانة كُتب عليه "حمام السيدات". مع ذلك، كان بلا نوافذ، فعندما أُغلق الباب، كان الظلام دامسًا. وقد تنازلنا عن هذا الأمر للسيدة بلافاتسكي.

كان السيد أوكلي منهكًا للغاية، وأعتقد أنه كان منزعجًا بعض الشيء من التغيير المفاجئ في خططنا، فألقى بنفسه على مقعد خشبي صلب على أحد جوانب المقصورة العامة؛ بينما فضّلنا أنا والسيدة أوكلي، نظرًا لجيش الصراصير الضخم الذي كان يسيطر على المقصورة بالكامل، قضاء الليل في المشي جيئة وذهابًا على بُعد أمتار قليلة من سطح السفينة المفتوح، مما منحنا حوالي ست درجات في كل اتجاه كحد أقصى لممشانا. توقفنا بين الحين والآخر لنلقي نظرة على السيد أوكلي، لكنه نام بسلام، رغم تغطيته التامة بالمخلوقات البغيضة التي ذكرناها سابقًا - وغيرها. كانت السيدة أوكلي، التي كانت شخصًا دقيقًا للغاية في الحياة العادية، تشعر ببعض الاكتئاب - ربما ليس بشكل غير طبيعي؛ لذلك بذلت قصارى جهدي لتهدئتها بصور متوهجة للمجد والجمال اللذين كنت آمل أن يكونا بانتظارنا في الهند. استمر هذا لبضع ساعات حتى كسر الرتابة فجأة صرخات بائسة من السيدة بلافاتسكي في خزانتها. اندفعت السيدة أوكلي على الفور

بشجاعة، وواجهت وباء الحشرات برعشة عابرة؛ لكنها وجدت السيدة بلافاتسكي مريضة جدًا، وتتألم بشدة، وتطالب بشدة بوسائل راحة لم تكن موجودة على ذلك القاطرة الصغيرة القذرة. لحسن الحظ، كانت محطتنا التالية في قرية القنطرة - حيث يعبر طريق الحجاج من القاهرة إلى القدس القناة؛ وقد تمكّنا من إقناع قبطان مركبنا الجنائزي بانتظارنا هناك لبضع دقائق. لم يكن هناك بالطبع أي شيء يشبه ممرًا، ولا حتى رصيفًا؛ لكنهم أخرجوا من مكان ما لوحًا خشبيًا - لوح بناء عادي، ربما بعرض قدم، واضطررنا أنا والسيد أوكلي إلى حمل قائدنا التعيس إلى الشاطئ بهذه الوسيلة. (كان وزن السيدة بلافاتسكي في ذلك الوقت 245 رطلاً؛ أعرف ذلك لأنني وزنتها بنفسي في ساحة الجزار على متن السفينة إس. إس. نافارينو بعد بضعة أيام).

قد تتخيل أنه كان عملًا شاقًا، وأن لغة السيدة بلافاتسكي في تلك المناسبة كانت أكثر وضوحًا للقوة من اللباقة.

ولكن بطريقة أو بأخرى، تم تحقيق هذا الإنجاز؛ نقلناها بسلام إلى الشاطئ، ثم عدنا إلى متن السفينة بعد ذلك بقليل - وهو ما كان مهمة أكثر جدية، نظرًا للانحدار الصاعد الواضح للوح الخشبي. أُعيدت إلى حجرتها الصغيرة، وجلست السيدة أوكلي البطلة بجانبها حتى غطت في النوم. أعتقد أن السيد أوكلي عاد إلى النوم مرة أخرى؛ لكن زوجته، حالما استطاعت مغادرة قائدنا، جاءت وسارت معي على سطح السفينة حتى رسونا في صباح مصر الذهبي الباهت بجانب رصيف الإسماعيلية.

<u>الإسماعيلية</u>

كانت هناك استراحة لبضع ساعات قبل انطلاق قطارنا، لذلك بدا من المنطقي الذهاب إلى فندق وتناول وجبة الإفطار. كان هناك في ذلك الوقت فندقان في المدينة، وكان سماسرة كل منهما يضغطون بشدة على رصيف الميناء. السيد أوكلي، الذي كان من المفترض أن يكون رجل أعمال المجموعة، عقد صفقة مع أحدهم.

على الرغم من أن السيدة بلافاتسكي كانت لا تزال شاحبة، إلا أنها تمكنت من النزول إلى الشاطئ والسير ببطء جيئة وذهابًا على الرصيف، لكنها لم تبدُ متلهفة للرفقة، بل كانت في الواقع ترفضها. رأيناها تتبادل بعض الكلمات مع مسؤول أو اثنين ومع رجال الفنادق؛ وعندما وصلت بعد قليل عربة متهالكة وأردنا التوجه إلى الفندق، انخرط الحمالان على الفور في شجار عنيف على أمتعتنا.

عندما طلبنا من رئيس المحطة التدخل، اتضح أنه بينما كان السيد أوكلي قد اتفق مع أحد هذين الرجلين، كانت السيدة بلافاتسكي قد تعاقدت في هذه الأثناء مع الآخر، وبطبيعة الحال، لأنها كانت تتحدث بالعربية، لم يكن لدينا أدنى فكرة عن هذا الإجراء من جانبها حتى حان وقت مغادرتنا. لذلك كان علينا الذهاب إلى الفندق الذي اختارته، وتهدئة الرجل التعيس الآخر قدر استطاعتنا. تم تسوية الأمور في النهاية، بالطبع عن طريق رشوة كلا الطرفين المتخاصمين، وفي النهاية سُمح لنا بالمغادرة بسلام وتناول فطورنا.

لا تزال السيدة بلافاتسكي المسكينة تعاني بعض الشيء، ومن الواضح أنها لم تكن في أفضل حالاتها المزاجية؛ لكنها استطلعت بسخط الاقتراح الخجول بأن نقضي يومًا في الإسماعيلية حتى تستعيد عافيتها. وهكذا، في الوقت المناسب، جلسنا في القطار.

<u>رسالة</u>

مع استمرار الرحلة، استعادت السيدة بلافاتسكي عافيتها تدريجيًا، ودار حديث قصير؛ لكنها كانت متأثرة بشكل واضح بتأثير الليلة السابقة، إذ فضّلت علينا قائدتنا أكثر التنبؤات تشاؤمًا لمصيرنا المستقبلي: "آه! أيها الأوروبيون"، قالت، "تظنون أنكم ستدخلون طريق السحر والتنجيم وتجتازون جميع مصاعبها منتصرين؛ أنتم لا تعرفون ما ينتظركم؛ لم تحسبوا حطام الطريق كما فعلت. الهنود يعرفون ما يمكن توقعه، وقد اجتازوا بالفعل اختبارات وتجارب لم تدخل أبدًا في أعنف أحلامكم؛ لكن أنتم، أيها الضعفاء المساكين، ماذا بوسعكم أن تفعلوا؟"

واصلت هذه النبوءات الشبيهة بكاساندرا برتابة محبطة،

لكن جمهورها كان شديد التبجيل لدرجة أنه لم يحاول تغيير الموضوع. جلسنا في الزوايا الأربع للمقصورة، السيدة بلافاتسكي تواجه القطار، والسيد أوكلي يجلس مقابلها بتعبير مستسلم كتعبير شهيد مسيحي مبكر؛ بينما جلست السيدة أوكلي قبالتي، تبكي بحرقة، وعلى وجهها رعب متزايد. أما أنا، فقد شعرتُ برغبة في وضع مظلة للحماية من مطر غزير، لكنني فكرتُ في أنه في النهاية، سلك العديد من الرجال الآخرين هذا الطريق ووصلوا إلى غايته، وبدا لي أنه حتى لو لم أستطع الوصول إليه في هذه الحياة، فسأتمكن على أي حال من وضع أساس متين لعمل التجسد التالي. يا سارة، يا سارة!

في تلك الأيام ما قبل التاريخ، كانت القطارات تُضاء عادةً بمصابيح زيتية دخانية، وفي وسط سقف كل مقصورة كان هناك ثقب دائري كبير يُدخل فيه الحمالون هذه المصابيح أثناء سيرهم على أسطح العربات. لكن، ولأن هذا قطار نهاري، لم يكن هناك مصباح، وكان من الممكن رؤية السماء الزرقاء من خلال الثقب. حدث أن كنتُ أنا والسيد أوكلي نتكئ إلى الوراء في زوايا غرفتنا، فرأينا تكرارًا للظاهرة التي وصفتها سابقًا بأنها تحدث في إنجلترا؛ رأينا كرةً من ضباب أبيض تتشكل في تلك الحفرة، وبعد لحظة تكثفت لتتحول إلى ورقة مطوية سقطت على أرضية حجرتنا. تقدمتُ للأمام، التقطتُها، وناولتها على الفور للسيدة بلافاتسكي، مفترضًا أن أي تواصل من هذا النوع موجه لها. فتحت الورقة على الفور وقرأتها، فرأيتُ احمرارًا ظاهرًا على وجهها.

40

قالت: "همم، هذا ما أستحقه لمحاولتي تحذيركم أيها الناس من المشاكل التي تنتظركم"، ثم ألقت الورقة إليّ.

قلت: "هل لي أن أقرأها؟"، وكان ردها الوحيد: "لماذا تعتقد أنني أعطيتك إياها؟" قرأتها فوجدتُها رسالةً موقعةً من الأستاذة كوثومي، تُشير فيها بلطفٍ شديدٍ ولكن بحزمٍ تامٍ إلى أنه ربما كان من المؤسف، وهي تحمل معها بعض المرشحين الجادّين والمتحمسين، أن تُعطيهم هذه النظرة الكئيبة لمسارٍ، مهما كان صعبًا، كان مُقدّرًا له أن يقودهم في النهاية إلى فرح لا يُوصف. ثم اختُتمت الرسالة ببضع كلماتٍ من الثناء اللطيف مُوجّهة إلى كلٍّ منّا بالاسم. يؤسفني أنني لا أستطيع الجزم تمامًا بالصياغة الدقيقة لتلك الرسالة، مع أنني متأكدٌ من أنني نقلتُ فحواها العام بشكلٍ صحيح. كانت الجملة القصيرة المُوجّهة إليّ شخصيًا: "أخبروا ليدبيتر أنني راضٍ عن حماسته وإخلاصه."

<u>قليلٌ من الغبار</u>

لا داعي للقول إننا جميعًا شعرنا براحةٍ كبيرةٍ وارتباطٍ قويٍّ وامتلأنا بالامتنان؛ ولكن، مع أن أي توبيخٍ لم يكن ليُصاغ بشكلٍ ألطف، كان من الواضح أن السيدة بلافاتسكي لم تُقدّره تمامًا. قبل أن تبدأ محادثتنا كانت تقرأ كتابًا ما.

أرادت مراجعة كتاب "الثيوصوفي"، وكانت لا تزال جالسة والكتاب مفتوح على ركبتها وسكين الورق في يدها. استأنفت قراءتها، وهي تمسح غبار الصحراء (الذي كان يتدفق من النافذة المفتوحة) عن صفحات الكتاب بسكين الورق أثناء قراءتها. عندما هبت ريح قوية، انطلق السيد أوكلي إلى الأمام وأشار وكأنه يغلق النافذة؛ لكن السيدة بلافاتسكي نظرت إليه بنظرة شريرة، وقالت بازدراء غير مدروس: "ألا يزعجك قليل من الغبار؟" انكمش السيد أوكلي المسكين في زاويته كما ينكمش الحلزون في قوقعته، ولم ينطق قائدنا بكلمة أخرى حتى وصلنا إلى محطة القاهرة. كان الغبار مُرهقًا للغاية، لكن بعد تلك الملاحظة، ارتأينا أن نتحمله في صمت. أتذكر أن السيدة أوكلي المسكينة كانت ترتدي إحدى تلك الأغطية الغريبة التي تُطلق عليها السيدات اسم "بوا الريش"؛ وقبل أن نصل إلى القاهرة

41

كانت كلها مجرد حبل متين من الرمل، والريش لا يمكن تمييزه.

تغيير مفاجئ آخر

في القاهرة، استأجرنا عربة وسافرنا كالمعتاد إلى فندق شيبرد، وهو الملاذ المعتاد للإنجليز. يبدو أن حوالي ثلاثين أو أربعين شخصًا آخرين كانت لديهم نفس الفكرة، فقد وجدنا قاعة المدخل الكبيرة مكتظة، وكل شيء في حالة من الفوضى العارمة. كانت أمتعتنا، التي كان لدينا كمية كبيرة منها، مكدسة على الأرض في منتصف القاعة؛ وجلست عليها السيدة بلافاتسكي، بينما كان السيد أوكلي يحاول شق طريقه وسط الحشد إلى مكتب الموظف ليحجز لنا غرفًا. بالكاد نجح في ذلك - في الواقع، كان لا يزال يكافح وسط الزحام في طريق عودته إلينا - عندما قفزت من مقعدها ونادت عليه بحماس، قائلةً له إننا لن نقيم في فندق شيبرد إطلاقًا، بل سنتوجه إلى فندق أوتيل دوريان، الذي كان يديره آل كولومب خلال إقامتهم في مصر - وكان الاقتراح أن نتمكن في ذلك المنزل من الحصول على قدر كبير من المعلومات التي ستكون مفيدة للسيدة بلافاتسكي عندما تأتي للتعامل معهم لاحقًا.

وبالطبع، تسبب هذا في الارتباك المعتاد؛ اضطر السيد أوكلي المسكين إلى العودة وإلغاء الغرف التي حجزها، واتجهنا إلى الفندق الآخر، الذي، وإن كان أقل أناقة، إلا أنه كان مريحًا بما فيه الكفاية. كان في ميدان الأزبكية، وكانت لدينا بعض الغرف الجميلة المطلة على الحديقة. مكثنا هناك عدة أيام، وأثمر الاقتراح الذي قُدِّم للسيدة بلافاتسكي نتائج طيبة، إذ استطاعت الحصول من المضيف الحالي ومضيفة الفندق، ومن بعض الخدم الذين عملوا في المنزل لسنوات، على أدلة دامغة على سلوك غير موثوق ومشين من جانب شاغليه السابقين.

أخ أكبر

في غرفة السيدة بلافاتسكي في ذلك الفندق، رأيتُ لأول مرة أحد أعضاء الإخوانية. وبينما كنتُ جالسًا على الأرض عند قدميها، أُرتّب بعض الأوراق لها، فزعتُ لرؤية رجل يقف بيننا، لم يدخل من الباب الذي كان أمامي مباشرةً طوال الوقت، ولم يفتحه. قفزتُ من مكاني مُطلقًا صرخة دهشة حادة، مما جعل السيدة

تضحك ضحكة غامرة. قالت مازحةً: "لن تقطع شوطًا طويلًا في علم الغيب إذا كنتَ تُفزع بسهولة من أمرٍ تافه كهذا." ثم قدّمتني إلى الزائر، الذي تبيّن أنه هو الآن الأستاذ جوال كول، مع أنه لم يتلقَّ حينها التنشئة التي جعلته خبيرًا.

كانت إقامتنا في مصر تجربةً رائعةً من نواحٍ عديدة، إذ كانت السيدة بلافاتسكي تُخبرنا باستمرار بالكثير من الجوانب الخفية لما رأيناه هناك. لقد زارت مصر من قبل، وكانت على معرفة جيدة ببعض المسؤولين، بمن فيهم رئيس الوزراء، نوبار باشا، الذي دعانا جميعًا إلى العشاء بكل لطف. كما بدا أنها تعرف القنصل الروسي، السيد هيتروفو، معرفةً وثيقة، وكان في غاية اللطف والاهتمام بها، يرسل إليها كل صباح باقةً كبيرةً من الزهور الجميلة، ويعاملها بكل ما أوتيت من قوة كسيدةٍ رفيعة المستوى، كما كانت في بلدها. كما عرّفتنا على السيد ماسبيرو، أمين متحف بولاق، كما كان يُسمى آنذاك. أتذكر تحديدًا كيف تجولنا في المتحف مع هذا الرجل، وكيف استطاعت السيدة بلافاتسكي أن تُزوّده بكمٍّ هائل من المعلومات الشيقة حول مختلف التحف التي كانت تحت رعايته.

<u>مراسمٌ مُرعبة</u>

رأينا أشياءً غريبةً كثيرة، وكان من دواعي سرورنا بالطبع أن يكون معنا من يفهم العادات الشرقية جيدًا، ويستطيع شرح معاني الكثير مما لم نكن لنفهمه لولاها. أتذكر يومًا ما كنا ننظر من نافذة الفندق، عندما رأينا عددًا من الرجال، من الواضح أنهم مسلمون، يتجمعون في دائرة في حديقة الساحة، جميعهم متجهون إلى الداخل. بعد بعض التمتمات التمهيدية، بدأوا جميعًا في ممارسةٍ غريبةٍ غير عادية.

رافعين أيديهم فوق رؤوسهم إلى أعلى ما يمكنهم، وانحنوا للخلف قدر الإمكان، ثم تأرجحوا للأمام حتى لامست أطراف أصابعهم الأرض أمامهم؛ وفي كل مرة قاموا بتلك التأرجحة المتشنجة، هتفوا جميعًا في انسجام باسم الله - "الله!". استمر هذا الأداء الرائع لمدة نصف ساعة تقريبًا، ثم فجأة انعطفوا جميعًا يسارًا، بحيث أصبحوا، على الرغم من وقوفهم في حلقة، واحدًا خلف الآخر. ثم وضع كل منهم يديه على كتفي الرجل الذي أمامه، وبدأوا يركضون في تلك الحلقة، وهم ينبحون جميعًا في انسجام تام كالكلاب. استمر هذا لمدة خمس دقائق تقريبًا، ثم سقط أحد الرجال من الحلقة وسقط على الأرض في نوبة، يكافح بشدة ويخرج الرغوة من فمه. في غضون لحظات، كان البقية جميعًا في نفس الحالة، وكان المشهد بشعًا للغاية. بعد قليل، بدا أنهم استعادوا عافيتهم واحدًا تلو الآخر، وجلسوا ينظرون حولهم في ذهول، وسرعان ما ساعدوا بعضهم بعضًا على الوقوف وترنحوا.

لكن العجيب أن جميع المارة في ذلك الشارع المزدحم اعتبروا الأمر برمته أمرًا طبيعيًا، ولم يتوقف أحدٌ حتى ليراقب هؤلاء الرجال - ناهيك عن تقديم أي مساعدة. أخبرتنا السيدة بلافاتسكي أنهم ينتمون إلى طائفة معينة تُمارس هذا الأداء، وأنهم يعتقدون أنهم بسببه يُصابون بمس من أرواح معينة، يمكنهم، وهم في تلك الحالة، الحصول على جميع أنواع المعلومات المفيدة - مثل مكان العثور على كنز مدفون - أو تلقي النصح بشأن أي صعوبة قد يواجهونها. كما وصفت لنا بأبشع طريقة المخلوقات العنصرية الغريبة المروعة والشريرة التي جمعوها حول أنفسهم من خلال هذه المراسم البغيضة.

<u>كانت تتقن العربية</u>

كانت السيدة بلافاتسكي تتقن العربية، وكانت تُسلينا كثيرًا بترجمة الملاحظات الخاصة التي كان يُدلي بها التجار العرب الوقورون والموقرون، وهم يجلسون يتحدثون مع بعضهم البعض في السوق. وبعد أن كانوا ينعتوننا بالكلاب المسيحية، ويتحدثون بقلة احترام عن قريباتنا من النساء لأجيال عديدة، سألتهم بلهجة باردة بلغتهم الخاصة عما إذا كانوا يعتقدون أن هذه هي الطريقة التي ينبغي أن يتحدث بها ابن صالح للنبي عن أولئك الذين يأمل في تحقيق مكاسب كبيرة منهم في مجال الأعمال. كان الرجال دائمًا في حيرة من أمرهم، إذ لم يتوقعوا أن يفهمهم أي أوروبي.

ومع ذلك، يبدو أن العربية كانت اللغة الشرقية الوحيدة التي كانت على دراية بها؛ لم تكن تجيد اللغة السنسكريتية، وينبع الكثير من صعوبات مصطلحاتنا الثيوصوفية من أنها كانت في تلك الأيام تصف ما تراه أو تعرفه، ثم تسأل أي هندي يصادف وجوده بالقرب منها عن الاسم السنسكريتي له. في كثير من الأحيان، لم يفهم الرجل الذي زودها بالمصطلح بوضوح ما تعنيه؛ وحتى عندما يفهم، يجب أن نتذكر أنها كانت تسأل أتباع مدارس فلسفية مختلفة، وأن كلًا منهم كان يجيب وفقًا لدلالة المصطلح في تعاليمه.

الظواهر

كانت العديد من الظواهر الغريبة تحدث باستمرار حولها في تلك الفترة. أولًا، كانت هي نفسها الظاهرة الأبرز، لأن تغيراتها كانت متغيرة. في بعض الأحيان، كان الأساتذة أنفسهم يستخدمون جسدها، ويكتبون أو يتحدثون من خلالها مباشرةً. في أوقات أخرى، عندما كانت غرورها منشغلة في مكان آخر، كان أحد تلميذيها أو اثنين من تلاميذها الأقل منها درجةً يأخذ الجثة، بل كانت هناك مناسباتٌ معينةٌ كانت فيها امرأةٌ أخرى مسؤولةً - أعتقد أنها من التبت. لقد رأيتُ بنفسي كل هذه التغييرات تحدث مرارًا وتكرارًا، ورأيتُ الرجل الجديد الذي دخل الجسد يلتفت حوله ليكتشف حالة الأمور التي دخل فيها - محاولًا استعادة خيط المحادثة، على سبيل المثال. ومع كل هذا، لم تكن بأي حالٍ من الأحوال وسيطًا عاديًا، لأن المالك الحقيقي للجسد كان دائمًا في متناول اليد بوعيٍ كامل، وفهمٍ تام لما كان يحدث.

أدت هذه التغييرات المذهلة أحيانًا إلى مضاعفاتٍ بالغة الغراب. كانت المرشدة التي استُدعيت فجأةً لاحتلال الجسد تجهل بالطبع ما قيل قبل بضع دقائق، وبالتالي انكشفت أحيانًا في ما بدا تناقضاتٍ صريحة. أتذكر قصةً رواها لي لاحقًا أحد أفراد أسرة شارع أفينيو، وهي تُعطي مثالًا واضحًا على الصعوبات التي واجهناها. كان الراوي رجلًا ذا خبرة قانونية، ولذلك كان يُنتدب عادةً ليمثل الأسرة، أو السيدة بلافاتسكي، عند وجود أي عمل يجب إنجازه مع المحامين.

تجربة مميزة

في يومٍ ما، طرأ أمرٌ من هذا القبيل؛ لا أعرف طبيعته بدقة، لكنه تضمن توقيع السيدة بلافاتسكي.

أفاتسكي عدة وثائق. وضع عضونا هذه الوثائق أمامها، وحاول بمسؤولية قانونية حقيقية أن يشرحها لها، لكن يبدو أنها لم تفهمها بوضوح، بل دفعت الأوراق جانبًا بفارغ الصبر. وبعد أن حصل، كما ظن، على جميع التوقيعات اللازمة، انسحب وكان على وشك الانطلاق في رحلته إلى المدينة؛ لكن، إذ وجد الجو أبرد مما توقع، قرر ارتداء معطف، وركض إلى غرفته في الطابق العلوي لإحضاره. نقل أوراقه من جيب إلى آخر، وتصفحها آليًا ليتأكد من وجودها جميعًا، ولحسن الحظ لاحظ أن إحداها غير موقعة؛ لذا في طريقه إلى

الطابق السفلي، دخل غرفة السيدة بلافاتسكي مرة أخرى، قائلًا: "يا هـ. ب. ب.، إليكِ إحدى هذه الأوراق التي أغفلتها؛ هل يمكنكِ التوقيع عليها من فضلك؟" "ما هي الأوراق؟" سألت السيدة بلافاتسكي.

"واحدة فقط من تلك التي وقّعتها قبل دقائق".

"ماذا تقصد؟ لم أوقّع أي أوراق،" ردّت بغضب.

"لكن، يا هـ. ب. ب.، ها هي!" احتجّ العضو المُحير؛ فبسطها أمامها.

"أوه، فهمتُ!" قالت، وقد بدت عليها علامات السكينة؛ "لكن ما فحواها؟"

كرّر صديقنا تفسيراته؛ ولم تكن مفهومة تمامًا هذه المرة فحسب، بل كانت السيدة بلافاتسكي هذه أكثر براعة منه في الأعمال، وسألته أسئلة لم يستطع الإجابة عليها!

46

لا عجب أن الغرباء لم يفهموا الموقف دائمًا!

أتذكر مناسبة اشترت فيها من سوق العطور في القاهرة زجاجة صغيرة من عطر الورد، لاستخدامها في غرفة الضريح في أديار، ودفعت ثمنها جنيهين إسترلينيين. بعد نصف ساعة، بينما كنا نتناول الغداء في الفندق، على طاولة صغيرة مخصصة لمجموعتنا في ركنٍ ما، سقط ملكان إنجليزيان من على الطاولة، وأوضحت السيدة بلافاتسكي أنها أُبلغت بأنه لا ينبغي لها إنفاق المال عليهما بهذه الطريقة، لأننا سنحتاج إلى كل شلن لدينا قبل وصولنا إلى أديار - وهو تصريحٌ ثبتت صحته بالتأكيد.

في بعض الأحيان، رأيتُ العديد من الظواهر التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالسيدة بلافاتسكي. رأيتُ رسوماتها وكتاباتها المتسرعة، ورأيتُها أيضًا تعثر على شيءٍ مفقودٍ بقوةٍ خفية. وفي مناسباتٍ عديدة، رأيتُ رسائل تتساقط من الهواء في حضورها؛ ويجب أن أذكر أيضًا أنني رأيت مثل هذه الرسالة تصل إلى المقر الرئيسي في أديار عندما كانت على بُعد ستة آلاف ميل في إنجلترا، ومرة أخرى، حظيت بنفسي عدة مرات بامتياز توظيفي من قبل المعلمة لتوصيل مثل هذه الرسائل بعد رحيلها عن العالم المادي.

في تلك الأيام الأولى للجمعية، كانت الرسائل والتعليمات من المعلمين متكررة، وعشنا في مستوى من الحماس الرائع لا يمكن لأولئك الذين انضموا منذ وفاة السيدة بلافاتسكي أن يتخيلوه.

أولئك منا الذين حظوا بامتياز لا يُقدر بثمن بالاتصال المباشر مع المعلمين احتفظوا بطبيعة الحال بهذا الحماس، ولكن ليس من السهل علينا، نحن، الذين تقل قدراتنا كثيرًا عن قدراتها، أن ننقله بالكامل إلى الأعضاء الجدد. ومع ذلك، فقد تساءلت أحيانًا عن عدد أعضائنا الحاليين الذين وجدوا أنفسهم قادرين على تحمل التدريب القاسي نوعًا ما ولكنه فعال بشكل ملحوظ الذي وضعت فيه تلاميذها؛ أستطيع أن أشهد على بعض التغييرات الجذرية التي أحدثتها أساليبها القاسية فيّ في فترة وجيزة جدًا - وأيضًا على حقيقة أنها كانت دائمة!

عندما وقعت بين يديها، كنت مجرد قس عادي يلعب التنس - حسن النية وضميره، كما أعتقد، لكنه خجول للغاية ومنعزل، مع كل رعب الرجل الإنجليزي العادي من جعل نفسه بارزًا بأي شكل من الأشكال أو يشغل منصبًا سخيفًا. بعد بضعة أسابيع من علاجها، وصلت إلى مرحلة أصبحت فيها قاسيًا تمامًا على السخرية،

ولم أعد أهتم على الإطلاق بما يعتقده أي شخص عني. أعني ذلك حرفيًا؛ لم يكن الأمر أنني تعلمت تحمل الرفض بصبر، على الرغم من الألم الداخلي، ولكنني في الواقع لم أكن أهتم بما يعتقده الناس أو يقولونه عني، بل لم أفكر في هذا الأمر أبدًا. ولم أهتم منذ ذلك الحين! أعترف أن أساليبها كانت قاسية وغير سارة في ذلك الوقت، ولكن لم يكن هناك شك في فعاليتها.

باستثناء أساتذة الحكمة العظام، لم أعرف شخصًا قط تشع منه القوة بوضوح كهذا. كانت ذكية بلا شك؛ لم تكن عالمة بالمعنى العادي للكلمة، ومع ذلك، كما ذكرتُ سابقًا، كانت تمتلك مخزونًا لا ينضب من المعرفة غير العادية في جميع أنواع المواضيع غير المتوقعة. كانت عاملة لا تعرف الكلل من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل، وكانت تتوقع من كل من حولها أن يشاركوها حماسها وصبرها المذهل. كانت دائمًا على استعداد للتضحية بنفسها - وبالآخرين أيضًا - من أجل القضية، من أجل العمل العظيم الذي كانت منخرطة فيه. إخلاص تام لسيدها ولكان عمله هو النغمة السائدة في حياتها، ورغم أنها ترتدي الآن جسدًا مختلفًا، إلا أن هذه النغمة لا تزال تبدو دون تغيير، وإذا ما طُلب منها يومًا ما أن تخرج من تقاعدها وتتولى مسؤولية الجمعية التي أسستها مرة أخرى، فسنجدها ترن في آذاننا كنداء لاستدعاء أصدقائها القدامى والجدد، حتى يستمر هذا العمل عبر العصور.

الفصل السابع

رحلتنا إلى الهند

انتهت إقامتنا الشيقة في القاهرة بخبر وصول باخرة "بريتيش إنديا إس. إس. نافارينو" إلى بورسعيد في تاريخ محدد. أُرسلتُ إلى هناك كساعي بريد، لأرتب مسبقًا بعض وسائل الراحة الخاصة للسيدة بلافاتسكي التي رغبت، مع بقية مجموعتنا الصغيرة، في تجنب القناة، وقضاء يوم إضافي في القاهرة، والركوب في السويس. أنجزتُ هذه المهمة الصغيرة على أكمل وجه، وأعتقد أن قائدنا كان راضيًا تمامًا عن الإقامة المُقدمة، مع أنها بالطبع لم ترقى إلى مستوى رفاهية السفن الحديثة الأكبر حجمًا.

كان لدينا عدد كبير من الركاب، وأعتقد أنهم والضباط كانوا من متوسط عدد الركاب المتوقع على متن سفينة متجهة شرقًا. ربما كان القبطان غريبًا بعض الشيء، فقد كان رجلاً متدينًا للغاية، ضيق الأفق ومتشددًا، وكان ينظر إلى السيدة باستياء شديد، بدا ممزوجًا بالرعب. كان موقفه تجاه مجموعتنا متحفظًا للغاية، وطوال الرحلة لم يتبادل أي منا معه أكثر من كلمات قليلة. مع ذلك، كان ضباطه أكثر لطفًا، وأتذكر أن السيدة أوكلي، التي كانت داعية لا تعرف الكلل، صادقت مساعد القبطان، السيد وادج، ونجحت في إثارة اهتمامه بالثيوصوفية إلى حد ما، على الأقل بما يكفي لحثه على قراءة كتاب أو كتابين، وحضور أحد اجتماعاتنا في أديار، وأعتقد أنه سيراسلها لاحقًا. كان من بين الركاب العديد من المبشرين، وباستثناء واحد، بدوا ميالين بوضوح لاعتبارنا مبعوثين لأمير الظلام. كان الاستثناء قسًا ويزليانيًا شابًا يُدعى ريستوريك، كنت ألعب معه تنس الطاولة؛ وجدته ودودًا ومنطقيًا، ومستعدًا لمناقشة جميع أنواع الأمور الدينية دون عنف. كان هناك نوع مختلف تمامًا من المبشرين، وهو مبشر أمريكي جاد ولكنه غير متعلم، يُدعى دانيال سميث، لم يُخفِ حقيقة أنه كان عامل بناء، لكنه وجد العمل الشاق والتعرض للضغوط شديدين على صحته، ولذلك، كما قال، دعاه الرب للتبشير بالإنجيل للوثنيين. ربما بسبب جهله، كان ميالًا للعدوانية، وكان كثيرًا ما يدخل في جدالات مع السيدة بلافاتسكي، والتي كانت مصدر تسلية كبيرة للركاب. أخشى أن قائدنا كان يجد متعة ماكرة في إشراكه في حديثه وحثه على الالتزام بأكثر العبارات اللاهوتية استحالة. كانت تعرف الكتاب المقدس أكثر منه بكثير، وكانت تقتبس باستمرار نصوصًا غير متوقعة وغير معروفة، مما أثار احتجاجه الساخط: "هذا ليس في الكتاب المقدس! أنا متأكد من أنه ليس في الكتاب المقدس!". ثم كانت السيدة بلافاتسكي تلتفت إليّ بهدوء مميت: "ليدبيتر، أحضر كتابي المقدس من حجرتي!"، وتشرع في إرباكه بالفصل والآية. في إحدى المرات، كان رده غير موفق: "حسنًا، على أي حال، أنا متأكد من أنه ليس في نسختي!". لكن موجة المرح التي انتشرت بين الحضور حذرته من تكرار مثل هذا الادعاء المتهور في

المستقبل. بينما كنا نعبر المحيط الهندي، أتذكر أنني كنت أسير على سطح السفينة مع السيدة بلافاتسكي في صباح باكر، في بهاء شروق شمس استوائي، عندما ظهر هذا المبشر الجليل أعلى الدرج، فحيّته على الفور قائلة: "الآن، سيد سميث! انظر حولك! انظر إلى البحر الهادئ المتلألئ، والألوان الجميلة! انظر إلى عظمة إلهك! في صباحٍ بديع كهذا، لا يمكنك أن تخبرني أنني سأُحرق في الجحيم إلى الأبد."!

يجب أن أنصف القس دانيال بالاعتراف بأنه احمرّ خجلاً وبدا عليه الانزعاج الشديد، لكنه تمسك بموقفه بشجاعة، وأجاب بجهد واضح: "حسنًا، أنا آسفة جدًا يا سيدتي، لكنني أعتقد أنك ستفعلين!". بطبيعة الحال، أثّرت شخصية السيدة بلافاتسكي المتألقة والقوية على جميع أفراد المجموعة، من ضباط وركاب (دائمًا باستثناء القبطان)، وكلما اختارت الظهور على سطح السفينة في طقس جيد، كانت تجمع حولها بسرعة ما يشبه مجلسًا من المستمعين المهتمين، الذين كانوا يطرحون عليها أسئلة حول مختلف المواضيع، ويستمعون بانبهار إلى قصصها عن التجارب والمغامرات في بقاع العالم النائية. وفي الليل تحديدًا، كانوا يطلبون منها دائمًا حكايات عن الغرائب والظواهر الخارقة للطبيعة، التي كانت ترويها ببراعة وواقعية مروعة، حتى أن جمهورها كان يرتعد من هول الرعب الممتع - لكنني لاحظت أنهم كانوا يميلون إلى التجمع معًا بعد ذلك، وأن أحدًا منهم لن يغامر في رحلة مظلمة بمفرده!

لم تكن نافارينو سفينة صيد بحرية تمامًا، ولكننا وصلنا أخيرًا إلى كولومبو، حيث التقى بنا العقيد أولكوت وعرّفني على الأعضاء البارزين في الجمعية الثيوصوفية البوذية هناك. لقد كان جيلًا سابقًا من العمال، وأفترض أن أيًا من السادة السنهاليين البارزين بيننا آنذاك لا يزالون يتمسكون بقيمهم.

علم الجمعية على المستوى المادي. أتذكر بشكل خاص موهانديرام العجوز (مسؤول مهم في المدينة)، والسيد ويليام دي أبرو (والد السيد بيتر دي أبرو المعروف، الذي عمل معنا بإخلاص لسنوات عديدة)، والسيد دون كاروليس من موتوال، والسيد ج. ر. دي سيلفا (الذي كان الكولونيل يُلقّبه دائمًا بالدكتور لسببٍ ما، مع أن هذه لم تكن مهنته)، والسيد س. ب. غوناواردانا (أمين فرع كولومبو آنذاك)، والسيد ن. س. فرناندو، والسيد ويجياسيكارا، والسيد هندريك دي سيلفا، وآخرين لا أذكر أسمائهم الآن، مع أن وجوههم لا تزال واضحة في ذهني. في النهاية، لقد مرّ ستة وأربعون عامًا، أي أكثر من نصف عمرٍ طويل! أصبحتُ بوذيًا

والأهم من ذلك كله، أنني قُدِّمتُ إلى القائد والباحث البوذي العظيم، هيكادوي سومانغالا ثيرو، كبير كهنة جبل بيك وجالي، ومدير كلية رهبان ويديوديا في مارادانا - وهو أكثر قادة الكنيسة البوذية الجنوبية علمًا واحترامًا.

في زيارة سابقة لجزيرة سيلان الجميلة، أعلن كلٌّ من الكولونيل أولكوت والسيدة بلافاتسكي علنًا اعتناقهما للدين البوذي، وقُبلا رسميًا في هذا الدين؛ والآن سألتني السيدة بلافاتسكي عما إذا كنتُ على استعداد لاتباع مثالهما في هذا الصدد.

51

أكدت لي بشدة أنه إذا اتخذتُ هذه الخطوة، فيجب أن تكون من تلقاء نفسي وعلى مسؤوليتي الخاصة، وأنها لا ترغب في إقناعي في هذا الأمر؛ لكنها اعتقدت، بصفتي كاهنًا مسيحيًا، أن القبول العلني لدين شرقي عظيم سيُقنع الهندوس والبوذيين على حد سواء بحسن نيتي، وسيُمكّنني من أن أكون أكثر نفعًا في العمل

بينهم من أجل أساتذتنا. أجبتُ بأنني أشعر بأقصى درجات التبجيل للسيد بوذا، وأنني أقبل تعاليمه بكل إخلاص، وأنه سيكون لي شرف عظيم أن أسجل نفسي بين أتباعه إذا استطعتُ فعل ذلك دون التخلي عن الإيمان المسيحي الذي تعمدتُ فيه. أكدت لي أنه لن يُطلب مني هذا الإنكار، وأنه لا يوجد تعارض بين البوذية والمسيحية الحقيقية، مع أن أي بوذي مُستنير لن يُصدق العقائد اللاهوتية الخام التي كان يُبشر بها المبشرون عادةً. قالت إن البوذية ليست مسألة عقيدة، بل مسألة حياة؛ لم يُطلب مني قبول أي بند من بنود الإيمان، بل محاولة العيش وفقًا لتعاليم الرب. كنتُ موافقًا تمامًا على هذا، لذا اتُّفق على أن أُقدَّم إلى رئيس الكهنة ليُقبَل. إن لقب رئيس الكهنة هذا يُعَدُّ تسميةً خاطئةً بعض الشيء، مع أنه كان يُستخدم عالميًا بيننا عند الحديث عن سومانغالا. ولأجل الدقة، فإن لقبًا مثل رئيس الدير سيكون أقرب إلى الحقيقة. في الواقع، لا يوجد شيء يُضاهي الكهنوت في البوذية؛ فلا تضحيات تُقدَّم، ولا خدمة عامة تُؤدَّى. أما إخوان الرداء الأصفر، الذين يُشكِّلون سمةً خلابةً في حياة جميع البلدان البوذية، فهم أفضل وصفٍ لهم بأنهم رهبان، وأقرب ما يصلون إليه من قيادة خدمة عامة هو عندما "يُقدِّمون البانسيل"، كما يُسمَّى، لمن يطلبه من رعيتهم؛ أي أنهم يتلون باللغة البالية الصيغة المقدسة للملاذات الثلاثة والوصايا الخمس، التي يُفترض أن يُنظم بها جميع البوذيين حياتهم، ويرددونها بطاعة.

إن تلاوة هذه الصيغة نفسها هي التي تُشكل القبول الرسمي للديانة البوذية؛ ولذلك، كان عليّ أن أكررها بعد رئيس الكهنة في ذلك اليوم في حديقة جامعته. إنها

52

مباشرة وبسيطة، لكنها بعيدة المدى. يُمكن القول إنها تبدأ بتمجيد السيد بوذا:

أُبجّل المُبارك، القدوس، الكامل في الحكمة.

الملاذات الثلاثة

تُكرر هذه العبارة ثلاث مرات، ثم تتبعها كلمة تيسارانا - التي تُترجم عادةً إلى "الملاذات الثلاثة". ومع ذلك، فإن هذا التعبير ليس مُعادلاً دقيقًا لكلمة بالي، التي يبدو أنها تعني أقرب إلى "المرشد". أقرب ما يمكن أن نصل إليه في اللغة الإنجليزية من المعنى الحقيقي لهذا الإعلان هو:

أتخذ السيد بوذا مرشدًا لي

أتخذ شريعته مرشدًا لي

أتخذ نظامه مرشدًا لي

كلمة دارما (دارما السنسكريتية)، والتي تُترجم عادةً إلى "قانون"، تحمل في الواقع دلالة أوسع بكثير من ذلك المصطلح الإنجليزي. فهي ليست قانونًا أو سلسلة من الوصايا التي وضعها السيد بوذا؛ بل هي بيانه للقوانين الكونية التي يوجد بموجبها الكون، وبالتالي لواجبات البشر كجزء من ذلك النظام العظيم. بهذا المعنى، يستخدم البوذيون التعبيرات المذكورة أعلاه. ففي نطقه لـ"تيسارانا"، يُعرب عن قبوله للسيد بوذا مرشدًا ومعلمًا له؛ وتمسكه بالعقيدة التي علّمها بوذا، واعترافه بالرهبان البوذيين العظماء كمفسرين ممارسين لمعنى تلك العقيدة. وهذا لا يعني على الإطلاق قبول تفسير أي نص.

راهبٌ مُتفرِّق، بل فقط تفسير الرهبنة بالمعنى الأكثر شمولية؛ فهو يعتقد أن التفسير الصحيح هو الذي تتبناه جماعة الإخوان بأكملها في كل مكان وزمان، مما يُقارب الإعلان الكاثوليكي العظيم الذي يقضي بأنه لا ينبغي الإيمان إلا بما قُبل دائمًا وفي كل مكان ومن قِبل الجميع. ولكن يبدو أنه في بعض الحالات على الأقل، يُربط دلالة أوسع بكثير بفكرة الإخوانية هذه، بحيث تُفهم على أنها لا تشمل الرهبنة كما هي موجودة الآن على المستوى المادي فحسب، بل تشمل الرهبنة بأكملها منذ البداية، بما يتوافق مع النظرية المسيحية لشركة القديسين، وربما حتى جماعة الإخوان البيضاء العظيمة نفسها.

الوصايا الخمس

بعد هذا الإعلان مباشرةً، تُتلى بانشا سيلا، المعروفة عادةً باسم "الوصايا الخمس". مرة أخرى، كلمة "وصايا" ليست الكلمة الصحيحة، مع أنها ترجمة محتملة لكلمة "سيلا"؛ أما كلمة "عهود" فهي أقرب إلى الحقيقة، وإن كانت ترجمة غير مقبولة. غالبًا ما تُقارن هذه بالوصايا العشر في اليهودية؛ لكنها في الواقع تختلف اختلافًا كبيرًا في طبيعتها، ورغم قلة عددها، إلا أنها أكثر شمولًا. وهي كما يلي:

(1)ألتزم بوصية الامتناع عن إهدار الحياة.

(2)ألتزم بوصية الامتناع عن تناول ما ليس لي.

(3)ألتزم بوصية الامتناع عن الجماع غير المشروع.

(4)ألتزم بوصية الامتناع عن الكذب.

(5)ألتزم بوصية الامتناع عن تعاطي المشروبات المسكرة أو المخدرات المخدرة. لا شك أن من يلفت انتباه العاقل، كما كتب الكولونيل أولكوت:

يجب على من يلتزم بهذه المبادئ بدقة أن يتجنب كل سبب يؤدي إلى بؤس الإنسان، لأنه إذا درسنا التاريخ، فسنجد أنه نشأ جميعه عن أحد هذه الأسباب. تتجلى حكمة السيد بوذا البعيدة النظر بوضوح تام في الأول والثالث والخامس، إذ إن إزهاق الأرواح، والشهوانية، وتعاطي المسكرات تُسبب ما لا يقل عن خمسة وتسعين بالمائة من معاناة البشر.

ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ كيف أن كل وصية من هذه الوصايا تتجاوز الوصية اليهودية المقابلة. فبدلاً من أن يُقال لنا "لا تقتلوا"، نجد أنفسنا مأمورين بعدم قتل أي روح؛ وبدلاً من أن يُؤمرنا "لا تسرقوا"، لدينا الوصية الأوسع نطاقاً "لا تأخذوا ما لا تملكون"، والتي من شأنها أن تشمل بوضوح

54

قبول الثناء غير المستحق لنا، والعديد من الحالات الأخرى التي تقع خارج نطاق ما يُسمى عادةً بالسرقة. سيُلاحظ أيضًا أن الوصية الثالثة من هذه الوصايا تشمل أكثر بكثير من الوصية السابعة لموسى، إذ لا تُحرّم نوعًا واحدًا من العلاقات غير الشرعية فحسب، بل جميعها. فبدلًا من أن نُحرّم الشهادة الزور في المحاكم، نُؤمَر بتجنب الكذب تمامًا. لطالما تساءلتُ كم كان سيكون من الخير لجميع هذه الدول الأوروبية التي تبنت تعاليم المسيح لو أن موسى الأسطوري أدرج في وصاياه الوصية الخامسة من الوصايا البوذية - وهي النهي عن لمس الخمر والمخدرات. كم كانت ستكون مشاكلنا الأساسية أبسط لو طُبِّقت هذه الوصية في إنجلترا

وأمريكا كما تُطَبَّق في الدول البوذية! من سمات الديانة البوذية أيضًا عدم وجود وصية "لا تفعل هذا أو ذاك" - لا أمر صادر عن إله أو معلم، بل مجرد وعد هادئ من كل إنسان بأنه سيمتنع عن أفعال معينة من الواضح أنها غير مرغوب فيها.

<u>رئيس الدير سومانغالا</u>

هذه، كما ذكرتُ، هي الصيغة التي كان عليّ تلاوتها بعد رئيس الكهنة سومانغالا؛ وفي الوقت نفسه، قدم لي شرحًا موجزًا لها ولما تعنيه. أتذكر أيضًا أنه قبل أن يدخلني سألني عما إذا كنت أفهم تمامًا الدين الذي ولدت فيه، مشيرًا إلى أن هذه الولادة لم تكن مصادفة، وأنه يجب عليّ التأكد من أنني تعلمت الدروس التي يجب أن يعلمني إياها.

حتى في هذه المناسبة التي تعرفت فيه لأول مرة، أعجبت كثيرًا بنبل رئيس الكهنة ولطفه ونزاهته الواضحة. شعرتُ فورًا أنني أمام رجلٍ عظيمٍ بحق. تعرفتُ عليه أكثر لاحقًا، حيثُ كنتُ منخرطًا لسنواتٍ في العمل التربوي في سيلان؛ ودائمًا ما وجدتُه واسعَ الاطلاع، كفؤًا، ولطيفًا، ولا يخلو من حسّ فكاهةٍ مُخلّص.

مع أن هذا لا ينتمي إلى هذه المرحلة من قصتي، بل إلى فترةٍ ربما بعد عامين، سأُدرجُ في هذه المرحلة حادثةً صغيرةً بدتْ مُميزةً له إلى حدٍّ ما. بما أن كلية ويديوديايا لم تكن بعيدةً جدًا

55

عمّا كان آنذاك محطة السكة الحديد الرئيسية في كولومبو، وعلى مقربةٍ من سيلِ السياح الذين كانوا ينزلون من سفن البريد الكبيرة، فقد استقبل رئيس الكهنة عددًا كبيرًا من الزوار الأوروبيين، وخاصةً أولئك الذين كانوا مهتمين بالديانات الشرقية، الذين حرصوا على زيارته عليه. أتذكر، على سبيل المثال، أنه في إحدى المرات، ظهر أستاذ اللغة السنسكريتية من جامعة أوروبية عريقة، فرحب به سومانغالا بفرحٍ بالغٍ بخطاب ترحيبي باللغة السنسكريتية، لكنه فوجئ كثيرًا عندما وجد أن الأستاذ المتعلم لا يفهم كلمةً واحدةً منها، إذ يبدو أنه لم يعتبر السنسكريتية لغةً منطوقةً على الإطلاق! من ناحية أخرى، عندما جاء السير إدوين أرنولد إلى كولومبو، استُقبل بترحيبٍ ملكي؛ وفي تلك الحالة لم يكن هناك خيبة أمل، لأنه لم يتمكن فقط من فهم وتقدير الترحيب الحار الذي لقيه، بل رد عليه بخطابٍ سنسكريتيٍّ طويلٍ وواضح!

الحادثة الخاصة التي أشرت إليها كانت ذات طابعٍ مختلفٍ بعض الشيء. في هذه الحالة، كان الزائر عالمًا فرنسيًا ذا مكانةٍ مرموقة، جاء لرؤية رئيس الدير، ربما بدافع الفضول في المقام الأول، أو ربما لإظهار المجاملة لرجلٍ متعلمٍ سمع عنه شيئًا في أوروبا. تحدث هذا الرجل باحترام عن فلسفة السيد بوذا، لكنه استنكر إدلاءه أحيانًا بتصريحات لا يمكن الدفاع عنها في مواضيع علمية. طلب منه رئيس الكهنة أن يضرب مثالًا، فاستشهد الفرنسي بمقولة مفادها أن الأرض ترتكز على الماء، والماء بدوره على الهواء، والهواء على الفضاء الفارغ. استمع سومانغالا بأدب شديد، وقال إنه على دراية تامة بالاكتشافات الرائعة للعلم الغربي، وكان دائمًا سعيدًا بتعلم أي شيء منها. ثم سأل العالم ببراءة تامة عن أحدث الاستنتاجات في هذا الموضوع من وجهة النظر الأوروبية. قال: "الآن، لو أمكننا أن نحفر تحت أقدامنا ونحن نجلس هنا، ونعبر إلى الجانب الآخر من الأرض، فماذا سنجد في الطرف الآخر من تلك الحفرة؟". فكر العالم لبرهة، ثم أجاب: "بحساب تقريبي، أعتقد أننا سنصل إلى المحيط الهادئ." ٥٦

"نعم"، قال رئيس الدير باهتمام شديد، "وإذا واصلنا الإبحار عبر المحيط، فماذا سنجد بعد ذلك؟"

"حسنًا"، قال العالم، "بالطبع سنخرج إلى الغلاف الجوي".

"وإذا واصلنا الإبحار عبر الغلاف الجوي؟"

"حسنًا، إذًا سنصل بطبيعة الحال إلى الفضاء بين الكواكب".

"إذن"، قال سومانغالا بخنوع، "يبدو أن استنتاجات العلم الحديث لا تختلف كثيرًا عن استنتاجات بوذا"!

<u>الرسو في مدراس</u>

بعد يوم أو يومين في كولومبو، استأنفنا رحلتنا على متن نافارينو، ووصلنا إلى مدراس، لنجد أمواجًا عاتية مزعجة، مما جعل هبوطنا مهمة مزعجة للغاية، بل ومحفوفة بالمخاطر إلى حد ما.

كان قد شُيِّد حاجز أمواج قبل بضع سنوات، لكنه لم يكن متينًا بما يكفي لمقاومة أمواج البحر التي هبت بفعل الرياح الموسمية، فلم يتبقَّ منه سوى بضعة أكوام متناثرة من الحجارة. ونتيجةً لذلك، اضطررنا إلى إنزالنا من السفينة في قوارب ضخمة من نوع غير مألوف. بدت ألواحها غير مثبتة بالمسامير بالطريقة الاعتيادية، بل كما لو كانت مخيطة بحبال، مما سمح بانهيار جوانبها بشكل غريب؛ وقيل لنا إن هذه الطريقة في البناء مكّنتها من مقاومة تأثير الأمواج العاتية بشكل أفضل مما لو كانت أكثر صلابة. كانت القوارب عميقة للغاية، وكان المجدفون بمجاديفهم الطويلة يقفون بطريقة ما على جانبي القارب، عند حافة القارب، بينما أُلقي الركاب التعساء في التجويف المركزي أسفل أقدام المجدفين، فيما كان سيصبح مخزن القارب لو كان مزينًا. ربما يُفهم أن النزول إلى مثل هذه السفينة من باخرة تتأرجح بشدة على الطرق المفتوحة (فبالطبع لم يكن هناك ما يُشبه الميناء آنذاك) يتطلب رشاقة كبيرة، وكان بالفعل إنجازًا خطيرًا للغاية، إذ كان القارب أحيانًا يكون مستويًا للحظة مع حواجز السفينة، ثم ينخفض بعد ذلك مباشرة عشرين أو ثلاثين قدمًا، لأن البحار كانت جبلية للغاية.

57

كان على المرء أن يقفز في اللحظة المناسبة تمامًا، وقد نجح معظم الركاب واحدًا تلو الآخر في ذلك، وإن كان ذلك بقدر كبير من الخوف، حيث تسلل معظمهم بشكل غير لائق ومخزٍ إلى قاع القارب.

من الواضح أن هذا النوع من الحركات البهلوانية كان مستحيلًا على السيدة بلافاتسكي، وكان البديل الوحيد هو ربطها بعناية على كرسي، وإنزالها بواسطة رافعة الشحن العادية. لا داعي للقول إنها لم تُقدّر هذه العملية، وأعتقد أن لغتها في تلك المناسبة فاجأت حتى الضباط المخضرمين. ومع ذلك، فقد أُنزلت واستقبلت بأمان تام، ورغم أن العملية ربما بدت مهينة، إلا أنني أعتقد أن بعضنا شعر بالحسد تجاهها.

وبعد قليل، كنا جميعًا بأمان في القارب، مبللين تمامًا، ولكننا لم نُصب بأذى.

علينا أن نتذكر أن السيدة بلافاتسكي كانت عائدة إلى الهند لمواجهة سيل من التهم الشنيعة والمُفترية التي وجهتها إليها كلية مدراس المسيحية.

المبشرين، أن هؤلاء المبشرين المزعومين قد تنبأوا بثقة أنها لن تعود أبدًا لمواجهة هذه الاتهامات، وبالتالي اعتبرها السكان الهنود بطلة وشهيدة، ونزلوا بالآلاف ليُحيوها تحيةً تُمنح لقائدٍ منتصر.

حفل استقبالنا

كان طلاب كلية باتشيابا يشاركون بشكل بارز في حفل الاستقبال، على ما يبدو كمظاهرة ضد كلية مدراس المسيحية المنافسة؛ وربما كانوا هم المسؤولون عن ظهور فرقة من العازفين على آلات موسيقية هندية غريبة مختلفة، معظمها، على حد ما أتذكر، من نوع الناي أو الفلاجوليت، مع وجود بعض الطبول أيضًا. أياً كان المسؤول عن الإجراءات، فقد ارتكب خطأً فادحاً بإرسال هذه الفرقة إلى السفينة في ذلك القارب المروع، وبينما كانوا يتقلبون لمدة عشرين دقيقة على الأقل في ذلك القارب في بحر هائج للغاية بينما كانت الترتيبات جارية لوضع السيدة بلافاتسكي والركاب الآخرين على متنه، كانوا منهكين تمامًا من دوار البحر، وبدلاً من استقبال قائدتنا بأصوات بهيجة بينما كان كرسيها يتأرجح، كانوا ببساطة يئنون ويائسين في قاع القارب.

58

تم نقلنا إلى جانب رصيف لم ننزل عليه إلا بصعوبة بالغة - في الواقع، كان على أصدقائهم رفع بعض أعضاء الفرقة إلى الشاطئ. على طول ذلك الرصيف كان يمتد خط ترام، وكانت هناك عربة واحدة بدائية نوعًا ما، كانت في الظروف العادية تجرها حصان؛ لكن حوالي اثني عشر طالبًا من أكثر الطلاب حماسًا ركبوا هذه العربة، وأصرّوا على جرّ السيدة بلافاتسكي إلى الشاطئ منتصرةً وسط حشدٍ غفيرٍ من الهتافات. كما نزل عددٌ لا بأس به من الأوروبيين لمشاهدة المرح، وجلسوا في عرباتهم في نهاية الرصيف. أعتقد أن عائلة أوكلي شعرت بالحرج الشديد وعدم الارتياح، ويجب أن أعترف أنني شعرتُ ببعض الحرج، لأن الإجراء برمته كان، على أقل تقدير، غير تقليدي؛ لكن السيدة بلافاتسكي تقبّلت كل هذا التكريم بكرامةٍ كبيرةٍ كأمرٍ طبيعي، بل بدت وكأنها تستمتع به. أضفى على المشهد لمسة فكاهية، إذ وُضع عازفو الفرقة الموسيقية التعساء، الذين ما زالوا يعانون من دوار البحر، أمام السيارة وأُمروا بالسير إلى الخلف أمامها، ليس فقط بالعزف بقوة طوال الوقت، بل بالانحناء نحو السيارة أثناء سيرهم. تعجز الكلمات عن وصف ذلك العرض المذهل؛ فإذا كان خيال القارئ قويًا بما يكفي، فربما يستطيع أن يتخيل هؤلاء العازفين الأبطال، وهم لا يزالون شاحبين ومتعثرين من دوار البحر، يمشون، أو بالأحرى يتعثرون، إلى الخلف، ينحنون بعمق وباستمرار، لكنهم يكافحون بنبل لإخراج بعض النغمات من آلاتهم الموسيقية المختلفة بين تشنجات الانزعاج الحاد، وهذا الموكب الغريب يشق طريقه عبر حشد مكتظ وصاخب، يلوحون جميعًا بالأعلام ويصرخون بأعلى أصواتهم. بدا ذلك الرصيف طويلاً جدًا، لكننا وصلنا أخيرًا إلى طرفه، ووجدنا أن مهراجا متعاطفًا قد أرسل عربةً لاستقبال السيدة، ونقلها إلى قاعة باتشيابا، حيث كان من المقرر أن تتلقى كلمة ترحيب من الطلاب.

في قاعة باتشيابا، أُجبرنا على الصعود إلى منصة، حيث جلس العقيد أولكوت والسيدة بلافاتسكي على كرسيين كبيرين بذراعين. كانت القاعة مكتظة للغاية، وجعل الهتاف الصاخب من المستحيل التحدث لدقائق عديدة. بالطبع، كنا جميعًا محمّلين بأكاليل الزهور

59

وفقًا للعادات الهندية اللطيفة والخلابة؛ وحاولنا قراءة كلمة الترحيب، إلا أن نوبات الهتاف التي لا تُقاوم جعلت من الصعب متابعتها. ثم نهض الكولونيل ليرد نيابةً عن السيدة بلافاتسكي، وكان من المأمول أن يُسمح لكلمته بإنهاء الإجراءات؛ لكن كان هناك العديد من الإخوة الهنود الآخرين الذين رغبوا في التعبير عن تعاطفهم، وسخطهم الشديد على فظاعة المبشرين. كان هناك طلب مُلحّ على السيدة بلافاتسكي نفسها لإلقاء كلمة، ورغم أنها لم تكن عادةً تتحدث علنًا، إلا أنها وافقت أخيرًا على ذلك في هذه المناسبة الخاصة. وبطبيعة الحال، استُقبلت بتصفيق حار، استمر طويلًا لدرجة أنها اضطرت للجلوس مجددًا وانتظار انتهاء الجلسة. عندما سُمح لها أخيرًا بالكلام، بدأت حديثها ببراعة قائلةً كم تأثرت بهذا الاستقبال الحماسي، وكيف أظهر لها ما عرفته دائمًا، وهو أن شعب الهند لن يتقبل باستسلام هذه الافتراءات الدنيئة والجبانة والمقززة والبغيضة للغاية، التي يروجها هؤلاء البشعون - ولكن هنا أصبحت شديدة الوقاحة لدرجة أن العقيد تدخل على عجل، وأقنعها بطريقة ما بالعودة إلى مقعدها، بينما دعا عضوًا هنديًا لتقديم بعض الملاحظات. أتذكر بشكل خاص خطابًا رائعًا للغاية ألقاه محامٍ شاب، السيد جيانيندرانا.

تشاكرافارتي؛ لم أكن أعرف من قبل شيئًا عن بلاغة المتحدث الهندي المتعلم تعليمًا عاليًا وفصاحته في الكلام. بدت لي الإجراءات في قاعة باتشيابا طويلة جدًا، ولكن في النهاية سُمح لنا بالمغادرة إلى أديار، وهناك ألقيت نظرة خاطفة على المقر الرئيسي الذي عرفته جيدًا فيما بعد، والذي يبدو لي حتى الآن موطنًا حقيقيًا أكثر من أي مكان آخر في العالم. هنا، بالطبع، كان هناك استقبال آخر للسيدة بلافاتسكي، وأعتقد أن حتى عزيمتها الصلبة كانت قد شارفت على الانتهاء بحلول ذلك الوقت، لأن بقيتنا كنا منهكين للغاية لدرجة أننا لم نتمكن من تقدير هذا المشهد الرائع.

الفصل الثامن

أديار أخيرًا

كان المقر الرئيسي الذي وصلتُ إليه في ديسمبر ١٨٨٤ مختلفًا تمامًا عن مجموعة المباني الفخمة التي يراها الزائر الآن وهو يقود سيارته عبر جسر إلفينستون من مدراس.

كان الكولونيل أولكوت قد اشترى العقار قبل عامين فقط، ولم يكن قد بدأ بعدُ سلسلة التعديلات والتوسعات التي كانت ستُحدث تغييرًا جذريًا في المباني. كانت مساحة العقار آنذاك سبعة وعشرين فدانًا، وكان المنزل من الطراز الأنجلو-هندي العادي - ليس كبيرًا، ولكنه مبني جيدًا وواسع. كان يُحيط به جناحان صغيران مثمنان الشكل، كل منهما بغرفتين، وكان يضم الإسطبلات والمباني الملحقة المعتادة - بالإضافة إلى حمام سباحة. للأسف، لا نملك صورًا جيدة للمنزل كما كان آنذاك، مع وجود صورة مطبوعة صغيرة من مجلة قديمة تُظهر منظرًا جزئيًا، وبعض صور المؤتمر المبكرة تُظهر أجزاءً صغيرة من المبنى.

عندما رأيته لأول مرة، كان يضم في الطابق الأرضي قاعة مركزية مربعة الشكل، على جانبيها غرفتان مريحتان. في الجزء الخلفي من القاعة كانت هناك غرفة انتظار، ثم غرفة كبيرة، من الواضح أنها كانت مخصصة لتكون غرفة الاستقبال الرئيسية، والتي كانت تمتد على طول المنزل تقريبًا وتفتح على شرفة واسعة تطل على نهر أديار. كانت هذه الغرفة تُستخدم كمكتب لأمين سر الجمعية ومدير دار النشر الثيوصوفية، وكنا نحتفظ هناك أيضًا بمكتبنا الصغير لبيع الكتب، والذي كان نواة لدار النشر الثيوصوفية الواسعة التي نما منها العمل التجاري الواسع النطاق في الوقت الحاضر. كما هو معتاد في الهند، كان المنزل بأكمله مغطى بسقف أسمنتي مسطح. على هذا السقف، عندما انتقلت ملكية المنزل إلى الجمعية، كانت هناك غرفة كبيرة (مقسمة الآن إلى غرفتي نوم)، وفي طريق النزول على الدرج، غرفة صغيرة جدًا عاش فيها دامودار - نوع من العش، بنافذة تطل غربًا على الجسر الكبير. كانت السيدة بلافاتسكي قد سكنت في البداية الغرفة الكبيرة على السطح، لكنها لم تكن راضية تمامًا عنها، لذلك أثناء غيابها في أوروبا عام ١٨٨٤، شُيّدت لها غرفة أخرى في الزاوية الشمالية الشرقية من السطح، وفي هذه الأخيرة استقرت عندما وصلنا إلى هناك في نهاية عام ١٨٨٨. كان العقيد أولكوت يقيم في ذلك الوقت في أحد أجنحة الحديقة - على الجانب الشرقي من المبنى الرئيسي؛ وكان الدكتور فرانز هارتمان يسكن الغرفة المثمنة، وكان العقيد أولكوت قد استقر في الغرفة المستطيلة خلفها مباشرة. عند وصولنا من أوروبا، وجدنا جميع أماكن الإقامة المتاحة مشغولة، بل مكتظة؛ حتى أنني تشرفت بالنوم على أريكة في غرفة العقيد لليلة أو ليلتين. أتذكر أنني استيقظت في منتصف إحدى الليالي فرأيت شخصًا طويل القامة يحمل فانوسًا يقف بجانب سرير العقيد، الأمر الذي أدهشني بعض الشيء، إذ كنت أعلم أن الباب كان مغلقًا. نهضتُ من فراشي نصف نهضة، ولكن

عندما رأيتُ أن الزائر قد أيقظ العقيد، الذي بدا أنه تعرف عليه، ارتميتُ مطمئنًا. بعد لحظات من الحديث الجاد، اختفى الشخص فجأة - وكانت تلك أول إشارة لي بأنه ليس زائرًا عاديًا. وبينما كان العقيد، الذي نهض من فراشي، يستلقي على الفور وينام مرة أخرى، خطر ببالي أنه من الأفضل أن أفعل الشيء نفسه؛ ولكن في الصباح، تجرأت وأخبرتُ العقيد بما رأيتُ باحترام. أخبرني أن الرسول هو جوال كول - وهو الآن عضو في جماعة الإخوان الكبرى، وكان آنذاك التلميذ الرئيسي ونائب الأستاذ كوثومي - وهو نفسه الذي سبق لي رؤيته في فندق أوتيل دوريان بالقاهرة، مع أن الضوء في هذه الحالة لم يكن قويًا بما يكفي لأتمكن من التعرف عليه.

وفي وقت لاحق من ذلك العام، عندما غادرت السيدة بلافاتسكي إلى أوروبا، استولى الكولونيل أولكوت، بناءً على رغبتها، على الغرفة الجديدة التي بُنيت لها في زاوية السطح، والتي يشغلها منذ ذلك الحين رئيس الجمعية. إن التغييرات التي أُجريت منذ ذلك الحين في مبنى المقر الرئيسي جذرية لدرجة أنه يكاد يكون من المستحيل على الزائر في الوقت الحاضر إعادة بناء المنزل كما كان في السابق؛ وحتى أولئك منا الذين عرفوه في تلك الأيام الخوالي يجدون صعوبة في تتبع المعالم القديمة. قاعة المقر

62

في العام التالي، 1885، أجرى الكولونيل أولكوت أول تعديل كبير له، بهدف توفير قاعة دائمة لعقد اجتماعات المؤتمر. عُقد مؤتمر عام 1884، الذي كان على وشك البدء عند وصولي، فيما يُسمى "باندال" - وهي قاعة مؤقتة ضخمة بجدران وسقف من سعف النخيل؛ وكانت المضايقات العديدة المرتبطة بهذا، بالإضافة إلى تكلفته، هي التي دفعت لجنة الجمعية إلى الموافقة على بناء مبنى أكثر متانة. وكما هو معتاد في الجمعية الثيوصوفية، كانت الصعوبة الكبيرة التي واجهتنا

إنها المشكلة المالية الأزلية. فبناء قاعة مناسبة لأغراضنا حتى في تلك الأيام الخوالي كان سيكلفنا ما لا يقل عن 1000 جنيه إسترليني، ولم يكن هناك ما يعادل هذا المبلغ في المتناول.

لكن براعة الكولونيل أولكوت كانت على قدر الحدث؛ فقد وضع خطةً حصلنا من خلالها على قاعة رائعة ومريحة، كافية تمامًا لاحتياجاتنا، بحوالي سدس هذا التقدير. على طول واجهة المنزل - أمام القاعة المربعة الموصوفة سابقًا والغرف على جانبيها - امتدت شرفة هندية عريضة معتادة، ربما يبلغ طولها مائة قدم وعرضها حوالي أربعة عشر قدمًا. في وسطها، برزت رواق متنقل يمتد تحته الممر المؤدي إلى المنزل. كانت أرضية هذه الشرفة أعلى من مستوى الممر ببضعة أقدام، فقام الكولونيل أولكوت بتمديد تلك الأرضية المرتفعة إلى حافة الرواق، ثم مدّها في كلا الاتجاهين حتى ضاعف عرض شرفته. رفع السقف حوالي ستة أقدام، وبنى جدارًا على الجانب الآخر من شرفته الممتدة، ثم صنع رواقًا جديدًا وحوّل مسار العربات ليلتقي به. وبهذه الطريقة، وفّر لنا قاعة على شكل حرف - T الشرفة ذات العرض المزدوج تُشكّل القطعة المتقاطعة، والقاعة المربعة الأصلية، مع غرفة الانتظار المُلقاة فيها، تُشكّل الخط المركزي. وُضعت منصة المتحدثين في منتصف الذراع الطويلة، مواجهةً للقاعة المربعة القديمة، بحيث تكون تلك القاعة أمام المتحدثين والامتداد الجديد على جانبيهم. استُخدمت هذه القاعة لسنوات عديدة لاجتماعاتنا العامة؛ من المفترض أن تتسع لـ 1500 شخص بشكل مريح، ولكن في عدة مناسبات، تم ضغط 2300 شخص فيها؛ وحتى في ذلك الوقت، كان لا بد من إبعاد الكثيرين لدرجة أننا تخلينا لسنوات عن محاولة استيعاب الحشود في الداخل، وعقدنا اجتماعاتنا العامة الـ 63 تحت أغصان شجرة البانيان الكبيرة في حدائق بلافاتسكي.

مؤتمري الثيوصوفي الأول

يمكن تخيّل مدى الحماس الهائل الذي شعرت به عند دخولي مؤتمري الثيوصوفي الأول، وما شعرت به عندما وجدت نفسي أخيرًا على أرض الهند المقدسة، بين الإخوة ذوي البشرة الداكنة الذين سمعت عنهم الكثير، والذين قد يكون أي منهم، على حد علمي، تلميذًا لأحد أساتذتنا القديسين، والذين اعتقدت أنهم جميعًا، على أي حال، كانوا من طلاب العلوم المقدسة منذ الصغر، ويعرفون عنها أكثر بكثير مما نعرفه نحن الغربيون. كنت مستعدًا تمامًا لرؤية أفضل ما في كل شخص، والاستفادة القصوى من كل شيء؛ وقد لاقيت ترحيبًا حارًا من كل من التقيت بهم، وبالتالي استمتعت بوقتي كثيرًا. كان عدد وتنوع الانطباعات الجديدة التي تلقيتها كبيرًا لدرجة أنها كانت ساحقة بعض الشيء؛ في الواقع، أتذكر بشكل غامض المحاضرات التي أُلقيت والإخوة المجهولين آنذاك الذين ألقوها. كان موضوع النقاش الرئيسي هو الهجوم المخزي الذي لا يُوصف على السيدة بلافاتسكي والذي شنه بعض الأشخاص الذين يسمون أنفسهم مبشرين مسيحيين - مع أنه لا يوجد شيء أكثر تناقضًا مع المسيحية من حملة الكذب والافتراء التي خاضوها بحماس وخبث.

سرعان ما وجدتُ اختلافًا كبيرًا في الرأي حول أفضل طريقة لمواجهة هذه الافتراءات البغيضة. كانت السيدة بلافاتسكي نفسها مليئة بالسخط الشديد وكانت حريصة جدًا على مقاضاة من قذفوها بتهمة التشهير.

وافقها العديد من أصدقائها ومعجبيها على هذا الرأي بشدة؛ ولكن حدث أن من بين أبرز أعضائنا الهنود عدد كبير من القضاة والمحامين البارزين ورجال الدولة المنتمين إلى مختلف الممالك الهندية شبه المستقلة؛ وقد نصحها جميع هؤلاء الرجال، بالإجماع، بشدة بعدم اتخاذ أي مسار من هذا القبيل. كانوا يدركون جيدًا المرارة الشديدة التي تحملها المشاعر الأنجلو-هندية تجاه الجمعية الثيوصوفية، وأعلنوا أنه من المستحيل تمامًا أن تتمكن السيدة بلافاتسكي من الحصول على العدالة أو أن تُجرى المحاكمة بالإنصاف المعتاد. لم أكن أنا نفسي في وضع يسمح لي بإبداء رأي في هذا الأمر، لذا لا داعي لقول المزيد عنه هنا، ولكن أود إحالة قرائي إلى المجلد الثالث من "مذكرات العقيد أولكوت القديمة"، الصفحات 190-195، حيث سيجدون الأسباب الكاملة للاستنتاجات التي توصلت إليها لجنة المستشارين. هناك اعتبار آخر أعتقد أنه كان له وزنه البالغ في هذا القرار، وهو استحالة منع العدو من إثارة مسألة وجود أسيادنا القديسين أمام المحكمة، مما يجعل أسمائهم عرضة للسب والشتم الفظ من قِبل مشوهين عديمي الضمير، لا هدف لهم سوى إلحاق أكبر قدر ممكن من الأذى بمن أحبوهم وتبعوهم. وقد ساد شعور بأن مثل هذا التعليق المُدنّس سيُثير رعبًا وسخطًا واسعَي النطاق بين جميع الهندوس الشرفاء، بحيث يكون من الأفضل تحمّل أي قدر من التشهير بدلًا من إطلاق سيلٍ من القذارة المروعة. ألقى العقيد أولكوت (الذي كان محاميًا) ثقل نفوذه بقوة في صف هذا الحزب الأكثر حكمة، وفي النهاية وافقت السيدة بلافاتسكي على مضض على الالتزام بقرارهم. لقد رحل عنا الآن العديد ممن برزت أسماؤهم في ذاكرتي عن مؤتمر عام ١٨٨٤، ولن يكون ذكرهم هنا إلا سردًا لقائمة أسماء، معظمهم غير معروف لدى الجيل الحالي من الثيوصوفيين. يظهرون في مذكرات رئيسنا المؤسس القديمة، ويمكن رؤية صور العديد منهم في سلسلة مذكرات "الشخصيات الثيوصوفية البارزة" التي نُشرت قبل بضع سنوات في مجلة "الثيوصوفي"، وكذلك في العمل الضخم للسيد سي. جيناراجاداسا "الكتاب الذهبي للجمعية الثيوصوفية". كان العديد منهم رجالًا ذوي مكانة مرموقة وسمعة نبيلة، ويشرفني أن أعرفهم ولو قليلاً. كان سكرتير التسجيل في ذلك الوقت شابًا من مهراتا براهمان، يُدعى دامودار كيشوب مافالانكار، وعلى حد ذاكرتي، كان هو ورجل براهمان جنوبي معين الشابين الوحيدين اللذين لعبا دورًا بارزًا في العمل، على الرغم من حضور مئات الطلاب الاجتماعات العامة. كان هذا الشاب البراهماني الجنوبي لغزًا

إلى حد ما؛ أفهم أن اسمه الحقيقي هو السيد كريشناماتشاري، ولكن في الفترة التي أكتب عنها كان يُعرف باسم باباجي (أو باواجي) دارباجيري ناث.

هذا اسم شمالي وليس جنوبيًا؛ ويبدو من إشارة في أحد كتب السيد سينيت أنه كان هناك بالفعل باباجي دارباجيري ناث في شمال الهند كان له دور في التاريخ المبكر للجمعية؛ لكنه بالتأكيد لم يكن نفس الشخص الذي رأيته في أديار، إذ وُصف بأنه شخص ضخم الجثة وبدين، بينما كان هذا الشاب أشبه بقزم. بدا حينها مخلصًا للسيدة بلافاتسكي، وعندما سافرت إلى أوروبا بعد ذلك بقليل، كان من بين من رافقوها؛ لكنه انقلب عليها لاحقًا لسبب مجهول وهاجمها بأبشع الطرق. أتذكر أن السيدة بلافاتسكي كتبت لي رسالة اشتكت فيها بمرارة من شرور تصرفه وخبثه؛ وقد علّق السيد كوثومي على تلك الرسالة أثناء إرسالها عبر البريد (كما كانوا يفعلون غالبًا في تلك الأيام)، ووصف الرجل الصغير بأنه قد فشل.

لسبب أو لآخر، ارتدى كل من هذا الشاب ودامودار خلال مؤتمر عام ١٨٨٤ زيًا غريبًا للغاية، يتكون في الغالب من نوع من المعطف الطويل من الحرير، ممزقًا بشرائط متبادلة من الأزرق والأبيض. بطبيعة الحال، انتشرت شائعة مفادها أن هذا زيٌّ يُفرض على أتباع المذهب الهندوسي! لكنني لم أرَ أحدًا يرتديه منذ ذلك الحين.

زيارة إلى بورما

بعد انتهاء المؤتمر بفترة وجيزة، طلب مني الكولونيل أولكوت مرافقته في رحلة استكشافية لتعريف بورما بالثيوصوفية. أعتقد أنه تلقى دعوة من الملك ثيبو، أو على الأقل تلميحًا بأن الملك كان متشوقًا لرؤية رجل أبيض اعتنق البوذية، وأن زيارته ستكون موضع ترحيب. لذلك، سافرنا على متن الباخرة البريطانية الهندية "آسيا" إلى رانغون. لم تكن البواخر البريطانية الهندية في تلك الفترة كما هي اليوم، وكانت "آسيا" سفينةً يبلغ وزنها حوالي 1200 أو 1300 طن فقط. في تلك الأيام، لم يكونوا يتجهون مباشرةً إلى رانغون، بل كانوا يتوقفون في طريقهم في ماسوليباتام، وكوكاندا، وفيزاجاباتام، وبيمليباتام، ولا ينعطفون إلا عند هذا المكان الأخير ليعبروا الخليج مباشرةً.

كان قبطان سفينة آسيا آنذاك زميلًا قديمًا لي في المدرسة (وهو نفسه الذي سمعت منه لأول مرة عن السيدة بلافاتسكي)، وقد سررتُ بفرصة الإبحار معه. أتذكر أنه أخبرنا أن أفضل كابينة في السفينة هي رقم 11، ونصحنا بحجزها لأنفسنا، وهو ما فعلناه.

حقيقة صغيرة غريبة

ولكن هنا ظهرت ظاهرة صغيرة تافهة ولكنها غريبة، بدت وكأنها تُطارد العقيد. لقد أثّرت مناقشاته مع البانديت الهنود بشدة على أهمية الرقم المقدس سبعة؛

وكانت النتيجة أنه كان دائمًا يراقب ظهور هذا الرقم في جميع أنواع الأمور الصغيرة في الحياة اليومية. ربما كان المرء ليبتسم لها باعتبارها خرافة صغيرة غير مؤذية، لولا أن الرقم المعني قد طارده بالفعل بطريقة غير عادية. في عدد مارس من مجلة "الثيوصوفي" لعام ١٨٩٢، كتب عن السيدة بلافاتسكي:
"ألاحظ في كتاب السيد سينيت مصادفة وصولها إلى نيويورك في ٧ يوليو ١٨٧٣، أي في اليوم السابع من الشهر السابع من عامها الثاني والأربعين (٦×٧)، وأن اجتماعنا قد أُجّل حتى بلغتُ عامي الثاني والأربعين. ويجب الإشارة أيضًا إلى أنها توفيت في الشهر السابع من العام السابع عشر من علاقتنا الثيوصوفية". أضف

إلى ذلك حقيقة أخرى وهي أن السيدة آني بيسانت قد انضمت إلى H. P. B. كمتقدمة للعضوية في الشهر السابع من السنة السابعة عشرة بعد انسحابها النهائي من الشركة المسيحية (وعندما كانت السيدة بيسانت نفسها في الثانية والأربعين من عمرها)، ولدينا هنا مجموعة جميلة من من المصادفات التي يجب وضعها في الاعتبار. لا شك أن وفاتي ستحدث في يوم سيُبرز مصير الرقم سبعة في تاريخ جمعيتنا ومؤسسيها. لقد تحققت نبوءته بدقة، إذ توفي في السابعة وسبع عشرة دقيقة من صباح السابع عشر من فبراير عام ١٩٠٧. ولكن، كما ذكرتُ سابقًا، كان الرقم يُطارده في حياته العادية بطريقة مُسلية للغاية. لقد سافرتُ معه كثيرًا، ومن الحقائق الثابتة أنه نادرًا ما كان يستطيع الحصول على تذكرة قطار أو حتى تذكرة ترام لا تحتوي على الرقم سبعة؛ وإذا لم يظهر الرقم نفسه، لسببٍ غريب، فإن مجموع أرقام الرقم سيكون سبعة أو مُضاعفًا له. في الحالة التي أشرتُ إليها للتو، تقدمنا بطلب للحصول على رقم المقصورة ١١، وتم تسجيله رسميًا في تذاكرنا؛ لكن عندما وصلنا إلى السفينة يوم الإبحار، استقبلنا صديقي

67

باعتذاراتٍ غزيرة، إذ حُجزت الكابينة 11 مرتين عن طريق الخطأ، وبالتالي نُقلنا إلى - رقم سبعة!

أتذكر مرةً أخرى أننا في تلك الرحلة الاستكشافية نفسها ضللنا طريقنا ذات يوم

عندما كنا نتمشى في ضواحي رانغون، وفجأةً، عندما رأينا شرطيًا يقف عند تقاطع طريقين، أشار العقيد إلى أننا سنسأله عن الاتجاه. لكن عندما اقتربنا من الرجل، همس العقيد لي جانبًا "انظر إلى الرقم"؛ نظرت إلى الرقم على قبعة الرجل، وضحكت عندما رأيت أنه 77. لا أعرف على الإطلاق ما تعنيه هذه الظاهرة الصغيرة الغريبة أو كيف تم ترتيبها؛ ولكن يمكنني بالتأكيد أن أشهد أنها كانت حقيقة. والعقيد، مع أنه ضحك عليه، إلا أنه آمن به إيمانًا جزئيًا كعلامة على حسن الحظ. فعندما كنا نركب عربة ترام تحمل هذا الرقم الغامض أو أي تكرار له، كان يقول: "ها! الآن أعلم أننا سنحظى بلقاءٍ رائع."!

حياتنا في بورما

كان السحر حليف رحلتنا إلى بورما، فقد كانت ممتعة للغاية، وكانت إقامتنا في البلاد شيقة وناجحة.

كانت رانغون مدينة مختلفة تمامًا عما هي عليه اليوم؛ فمدينة بأكملها تقريبًا تتكون من منازل خشبية. أتذكر أننا أقمنا مع رجل يُدعى مونغ هتون أونغ، كان يسكن في ما كان يُعرف آنذاك بقمة شارع فاير، وكنتُ أقوم بنزهات طويلة عبر الغابة إلى ضواحي كميندين وإنسين، وفي إحداها مررتُ بتجربة غريبة، حيث واجهتُ حيوانًا من قبيلة الفهود، نظر إليّ بنظرات ملتهبة لدقائق بدت وكأنها دقائق، وإن كانت في الواقع حوالي ثلاثين ثانية، قبل أن يُقرر أنني غير مؤذٍ ويمضي في طريقه بسلام. وجدنا أن شرح العقيد للبوذية أثار اهتمامًا كبيرًا. كان عدد كبير من السادة البورميين يجتمعون كل مساء في غرف مضيفنا، وكثيرًا ما كنا نجري مناقشات مفيدة ومسلية. ومع ذلك، لم يقتصر الاهتمام المُظهر على سكان البلاد الأصليين، بل كان هناك أيضًا عدد كبير من السكان التاميل؛ وكما كان العقيد قادرًا على التحدث بطلاقة وإرشاد مع البورميين عن البوذية، فقد كان قادرًا على التحدث مع التاميل عن الهندوسية بنفس القدر من الكفاءة؛ وبنفس الطريقة التي سمعته يُلقي فيها محاضرات مُطولة على جمهور بارسي عن الزرادشتية؛ ولأنه كان من الواضح تمامًا أنه ليس عالمًا بالمعنى العادي للكلمة فيما يتعلق بأي من الكتب المقدسة الشرقية، فقد سألته ذات مرة كيف استطاع، دون تلك المعرفة التفصيلية، أن يُفسر عقائد هذه الديانات المختلفة، وأن يُلقي عليها في كل حالة

ضوءًا جديدًا لم يُقدمه لهم مُعلموهم. فأجاب: "يا بني العزيز، بالطبع لا أعرف تفاصيل كل هذه الديانات؛ لكنني أعرف فلسفتي الثيوصوفية، وأجد أنها دائمًا ما تُناسب وتُفسر كل شيء. إنهم يعرضون مشاكلهم المختلفة؛ فأُنصت بعناية ثم أستخدم حسي السليم." أستطيع أن أشهد بالتأكيد أن الخطة نجحت. كما تعرف العقيد على بعض السادة الأوروبيين والأوروبيين الآسيويين المهتمين بشدة بظاهرة التنويم المغناطيسي؛ ولأن العقيد نفسه كان منومًا مغناطيسيًا بارعًا، فقد تمكن سريعًا من تكوين مجموعة صغيرة من الطلاب على هذا النهج. ولكن في الوقت الذي كان فيه كل هذا العمل ينفتح بشكل جيد في هذه الاتجاهات المختلفة، وصلت برقية من دامودار إلى العقيد يتوسل إليه بالعودة على الفور، لأن السيدة بلافاتسكي كانت مريضة بشكل خطير. بالطبع، استقل الباخرة التالية عائدًا إلى مدراس، تاركًا إياي في رانغون لمحاولة تجميع هذه العناصر المختلفة معًا - وهي مهمة جادة إلى حد ما لرجل جديد تمامًا على هذا النوع من العمل. ومع ذلك، بذلت قصارى جهدي، مع أنني أخشى أنني أفتقر تمامًا إلى ذكاء العقيد وسرعة شرحه.

لدى وصوله إلى مدراس، وجد السيدة بلافاتسكي في حالة خطيرة للغاية؛ في الواقع، أعتقد أنه ظل غير متأكد تمامًا من تعافيها لمدة ثلاثة أو أربعة أيام؛ لكن في نهاية تلك الفترة، زارها سيدها إحدى تلك الزيارات التي عرض عليها فيها خيار التخلي عن جسدها المنهك بشدة أو الاستمرار فيه لفترة، للقيام بعمل آخر قبل التخلي عنه نهائيًا. يبدو أن هذا قد حدث عدة مرات خلال مسيرتها المهنية، وفي كل مرة كانت تختار الطريق الأصعب، وتتلقى منه القوة للاستمرار لفترة أطول. في هذه الحالة، تحسنت حالتها فجأة لدرجة أنها وافقت على عودة العقيد إلى بورما، فعاد مرة أخرى في رحلة العودة على متن نفس الباخرة التي حملته إلى الهند - إس إس أورينتال. لا يسعني إلا أن أصف مدى سعادتي بالترحيب به، ولسماع أن السيدة بلافاتسكي قد تعافت بشكل رائع. عاد إلى عمله بحماسة بالغة، وأسس ما لا يقل عن ثلاثة فروع منفصلة للجمعية: فرع شوي داغون للبورميين لدراسة البوذية، وجمعية رانغون الثيوصوفية للأعضاء التاميل، وجمعية إيراوادي الثيوصوفية لطلاب التنويم المغناطيسي الأوروبيين والأوراسيويين. يُعد شوي داغون باغودا ذهبيًا رائعًا يقع على نتوء من التلال خارج المدينة مباشرةً، ويُقال إنه يحتوي على رفات ليس فقط للإله غوتاما بوذا، بل أيضًا لثلاثة آلهة بوذا سبقوه في هذا العالم - قبة رائعة على شكل جرس ترتفع 370 قدمًا فوق منصتها، التي ترتفع بدورها 166 قدمًا فوق الريف المحيط بها. تُغطى هذه القبة العظيمة بأكملها بورق الذهب، الذي يُجدد باستمرار، لذا يُمكن تخيل روعة هذا الأثر، وأن الباغودا معلم بارز يُرى من مسافة بعيدة. تبلغ مساحة المنصة 900 قدم في 700 قدم، وتضم العديد من المعابد الصغيرة والأضرحة ودور الراحة، التي تضم مئات من تماثيل بوذا، التي قدمها عدد لا يحصى من المريدين منذ عام 588 قبل الميلاد، عندما بدأ تشييد هذه القبة، مع أنه يُقال إن المكان كان مقدسًا لقرون قبل ذلك. أتذكر التأثير الفني الرائع الذي نتج عن ذلك، مباشرة بعد شروق الشمس في صباح أحد الأيام. ألقى العقيد أولكوت محاضرة على تلك المنصة، حيث وقف هو نفسه على رأس درج صغير، وجلس جمهوره على المنصة الحجرية الواسعة على طريقتهم الخاصة. كان الزي البورمي الاحتفالي أكثر بهجة من أي زي آخر في العالم؛ وأنا أجلس عند قدمي العقيد وأنظر إلى جمهوره، لا أستطيع مقارنته إلا بحقل واسع من أزهار زهيدة الألوان - شيء يشبه تلك التي نراها من قطار السكة الحديد في هولندا في موسم ازدهار النرجس والنرجس أو الزنبق. بعد سنوات، تحدثتُ بنفسي على تلك المنصة نفسها، بل وأهديتُ البانسيل لحشد كبير هناك؛ ودائمًا ما يجد المرء نفس التأثير الرائع.

خلال محادثات مطولة عديدة مع مضيفنا وأصدقاء بورميين آخرين، وجميعهم من كبار السن والشخصيات المرموقة في المجتمع البوذي في رانغون، بدأ العقيد يشك كثيرًا جدياً، حكمة وجدوى الزيارة المقترحة للملك

ثيبو في عاصمته ماندالاي، في بورما العليا. يخبرنا الكولونيل أولكوت في مذكراته القديمة أن مستشارينا وصفوا هذا الملك بشخصية سيئة للغاية، واعترفوا بأسف بأنه طاغية فاسد، ووحش من الرذيلة والقسوة، وأن دافعه في دعوة الملك للزيارة كان مجرد فضول لرؤية بوذي أبيض، وليس حماساً للديانة البوذية، التي كان الحاكم نفسه لا يستحق أن يكون ممثلاً لها. كما ذُكر أن سلوك الملك المتغطرس والظالم في تعاملاته مع بعض التجار الإنجليز سيؤدي حتماً إلى اندلاع حرب، مما سيجعل أي محاولة لإدخال الثيوصوفية إلى أراضيه لا قيمة لها. لذلك قرر الكولونيل إلغاء رحلتنا الشمالية المقترحة، واستبدالها بجولة عبر بورما السفلى، وآسام، والبنغال. مع ذلك، لم يكن من المقدر لهذه الخطة أن تتحقق في تلك الفترة، إذ تذكرنا على عجل خبر انتكاسة السيدة بلافاتسكي المُقلقة.

قائدان دينيان

قبل أن أتحدث عن رحلة عودتنا، يجب ألا أنسى تسجيل مقابلتين شيقتين للغاية. الأولى كانت مع ثا-ثا-نا-باينغ، أو رئيس دير ماندالاي، وهو أشبه برئيس أساقفة كانتربري البورمي، الذي زار رانغون خلال إقامتنا، وكان لبقًا بما يكفي لمنحنا مقابلة. أتذكر أنني اضطررت للجلوس لمدة ثلاث ساعات في وضعية غير مريحة وضيقة للغاية، احترامًا لهذا الرجل الكنسي، بينما كان يُجري نقاشًا مُتعمّقًا مع العقيد أولكوت حول نقاط مُختلفة من العقيدة البوذية. بالطبع، لم يكن يتحدث الإنجليزية، لذلك كان لا بد من ترجمة كل جملة، وكان من الصعب في كثير من الأحيان التوصل إلى تفاهم مُتبادل.

مع ذلك، أعتقد أن كان الرجل العجوز، الذي كان بارعًا للغاية ومتشككًا بعض الشيء، مقتنعًا تمامًا في النهاية بأننا بوذيون حقيقيون!

أما المقابلة الأخرى فكانت أيضًا مع شخصية دينية مرموقة، ولكن رجلٌ من طرازٍ مختلفٍ تمامًا - الأسقف بيغانديه الكاثوليكي الروماني اللطيف والقديس، الذي كان آنذاك نائبًا رسوليًا لجنوب بورما. خلال فترة توليه هذا المنصب الطويلة، أصبح مهتمًا بشدة بدين البلاد، وكتب كتابًا قيّمًا ومؤثرًا للغاية، وهو "أسطورة غوداما"، 71 الذي نُشر في مجلدين ضمن سلسلة تروبنر الشرقية. لذلك كنا على يقين من أنه عند زيارته سنجد أن لدينا العديد من النقاط المشتركة، ولم نشعر بخيبة أمل. استقبلنا بحفاوة بالغة، وأثنى على العقيد أولكوت على كتابه "التعليم المسيحي للبوذية"، الذي قال إنه لا يوجد كتابٌ أنفع منه عن دين ساكياموني. وأكد لنا بشدة أنه لا يساوره شكٌ في خلاص أصدقائه وجيرانه البوذيين الطيبين أكثر مما يساوره هو، وأشاد كثيرًا بنزاهتهم ولطفهم وحسن خلقهم. أُعجب العقيد به بشدة، ولأنه لم يكن معتادًا على التعامل مع أصحاب الرتب الأسقفية، كان يُصر على مناداته بـ"مُحترمك" بدلًا من "سيدي" المعتاد!

رحلة العودة

غادرنا رانغون على متن الباخرة البريطانية الهندية "هيمالايا"، وكانت رحلة رائعة حقًا. لا بد أننا بدأنا في ظل ظروف فلكية غير مواتية، فكل يوم كنا نعبر فيه خليج البنغال في طقس مثالي، كان يُصادفنا سوء حظ غريب. كان معنا بعض المبشرين على متن الباخرة، وكما هو معروف، يعتبرهم بحارة معظم البلدان نذير شؤم، يجلبون الحظ السيئ بالتأكيد؛ لذلك قبل أن نصل إلى بيمليباتام، كان طاقم لاسكار في حالة من الرعب، وكادوا أن يُشعلوا فتيل التمرد.

في اليوم الأول، تعطلت المحركات؛ لكن في تلك الأيام، كانت العديد من السفن البخارية تحمل أشرعة أيضًا، وكنا نُجهز أنفسنا بالشراع، فأبحرنا كاليخت لعدة ساعات بسرعة عقدتين تقريبًا، حتى أُجريت الإصلاحات. في اليوم التالي، سقط أحد ركاب السفينة الهندوس في البحر، فاضطرت السفينة للتوقف، وإرسال قارب لإنقاذه، والدوران في دائرة لالتقاطه. ومن الأمور الطريفة أن العقيد أخبرنا أنه قبل خمسة أشهر في باريس، وصف عراف هذا المشهد، قائلًا إنه رآه (العقيد) يبحر في باخرة في بحر بعيد، ورجل يسقط في البحر، والسفينة توقفت، وقارب تم إخراجه، والباخرة تتحرك في دائرة. لأن السفينة البخارية لا تدور عادةً إلا إذا كانت تُحرك بوصلتها، فقد فاجأ هذا العقيد، فدوّنه، ولم يتوقع أن تكون هذه الرؤية نبوءةً لحدثٍ سيحدث بعد نصف عام تقريبًا على الجانب الآخر من العالم.

72

نجا الراكب؛ ولم تكن للحادثة عواقب وخيمة، لكن الطاقم بدأ يتذمر؛ وتفاقم قلقهم بشكلٍ مُبرر عندما اكتُشف حريقٌ غامضٌ مشتعلٌ بين البضائع. سرعان ما أُخمد الحريق، ولم يُلحق ضررًا يُذكر، لكن الشعور بالقلق استمر؛ وبلغ ذروته في اليوم التالي عندما أعلنت حالة جدري بين ركاب الدرجة الثالثة! ربما كان من الأفضل لو أننا أبصرنا الساحل الهندي في وقتٍ مبكر من اليوم التالي، قبل أن يحين وقتٌ آخر لنوبةِ سوء حظٍّ أخرى!

الفصل التاسع

اضطرابات في أديار

عندما وصلنا إلى أديار، وجدنا ظروفًا غير مُرضية للغاية تسود هناك. لم يكن المقر الرئيسي ملاذًا للراحة والسكينة كما ينبغي أن يكون، بل كان يسوده انعدام الثقة والقلق. ورغم قرار المؤتمر، لا يزال أهل البيت منقسمين حول مسألة ما إذا كان ينبغي على السيدة بلافاتسكي مقاضاة مُفتريها التبشيريين بتهمة التشهير. رأى كثيرون أنه لا يُمكنها استعادة مكانتها في نظر العالم إلا بدعوى قضائية ناجحة؛ وكانت هي نفسها مُؤيدة بشدة لرأيهم، بينما رأى آخرون أن مثل هذا المسار لن ينتهي إلا بالكارثة. كان العنصر الأوروبي في المقر الرئيسي آنذاك مستاءً للغاية من إدارة العقيد أولكوت لشؤون الجمعية، وتمنى أن يسلمها إلى لجنة مكونة، إن لم تخني الذاكرة، منهم، ويعاونه رجل هندي. بدا لي هذا اقتراحًا ظالمًا للغاية، ورفضتُ المشاركة في التحريض، وبطبيعة الحال لم يشعر العقيد أولكوت بأنه يستطيع تسليم مسؤولياته كرئيس للمستائين. خلال غياب العقيد، حصل هؤلاء على موافقة جزئية مترددة على خطتهم من السيدة بلافاتسكي، عندما كانت مريضة جدًا بحيث لم تستطع فهم نطاق اقتراحهم - فقد أثاروا قلقها بنبوءات كاساندرا الشبيهة بنبوءات كاساندرا عن التفكك والانهيار الوشيك للجمعية إذا لم يُعتمد حلهم فورًا. ولكن بمجرد أن تعافت وشرح لها العقيد أولكوت جوهر مطلبهم المتواضع، تراجعت على الفور عن موافقتها المترددة ورفضت بشدة هذه المؤامرة.

رحيل السيدة بلافاتسكي

في ظل المضايقات المستمرة لهذه المضاعفات المختلفة، بدت السيدة بلافاتسكي عاجزة تمامًا عن استعادة صحتها، وكان الضيق الذي سببته لها هذه السلسلة المتواصلة من المضايقات كبيرًا لدرجة أن طبيبها أعلن أخيرًا وبشكل قاطع أن مرضها سينتهي قريبًا بشكل مميت ما لم تتمكن من الفرار تمامًا من بيئتها الحالية. وبصعوبة بالغة، حصلنا أخيرًا على موافقتها على إقامة مؤقتة في أوروبا، وقرب نهاية شهر مارس، غادرت بالفعل على متن سفينة إس إس تيبر، برفقة الدكتور فرانز هارتمان، والآنسة ماري فلين، وباباجي دارباجيري ناث. كان دامودار كيشوب مافالانكار قد غادر أديار في 23 فبراير، قبل عودتنا من بورما، وبعد فشل محاولة الهيمنة التي شنتها الزمرة الأوروبية، غادروا هم أيضًا بسرعة؛ وبدا المقر الرئيسي وأديار خاليين مهجورين.

بعد ذلك بوقت قصير، غادر العقيد أولكوت في إحدى جولاته المتكررة؛

ولكن قبل مغادرته، عرض عليّ خيارين للعمل؛ إما أن أذهب إلى جالي وأتولى مسؤولية المدرسة الثيوصوفية التي أُنشئت هناك مؤخرًا، أو أبقى في المقر الرئيسي وأشغل منصب سكرتير التسجيل للجمعية.

اخترت الخيار الأخير، لأنه سمح لي بالبقاء في قلب الحركة حيث كنت أعلم أن أساتذتنا غالبًا ما يظهرون في أشكال مجسمة.

مع أنه كان من المتوقع من سكرتير التسجيل أن يؤدي أيضًا مهام مدير مكتب الثيوصوفيين ودار الكتب، إلا أن العمل كان لا يزال بسيطًا للغاية في تلك الأيام الأولى. بذلتُ قصارى جهدي، لكنني أخشى أنني لم أحقق نجاحًا باهرًا في أيٍّ من هذه المهام، لأني كنتُ عديم الخبرة تمامًا في الأمور التجارية، ولم أكن أعرف أي الكتب ستُباع جيدًا وأيها لن تُباع. كان سلفي في المكتب هو دامودار المذكور آنفًا، ومع أنني لم أكن أعرف سوى القليل عن الأعمال التجارية، أعتقد أنه كان يعرف أقل من ذلك، فقد وجدتُ كل شيء يتعلق بالمكتب في حالة من الفوضى، مع أكوام ضخمة من الرسائل التي لم يُجب عليها، بل وحتى الرسائل التي لم تُفتح، مكدسة على الأرض. أعتقد أن دامودار كان يعيش حياةً رغيدة لدرجة أنه لم يكن لديه وقتٌ للأمور المادية، وأظن أنه كان ينظر إليها باشمئزاز شديد. كان يكتب المقالات والرسائل بقوة هائلة وبجدّ لا يكل، ولم تكن الاعتبارات الدنيوية، مثل ملء طلبات الكتب والاعتراف بالاشتراكات، تدخل في عالم تفكيره إطلاقًا. كان مكتبنا آنذاك عبارة عن غرفة مركزية طويلة بشرفة واسعة تُطل على النهر، مقابل المنصة، وتواجه تماثيل المؤسسين. تُستخدم الآن كنوع من قاعة القراءة، ملحقة بالمكتبة.

تجسّد الأساتذة

تحدثتُ للتو عن التجسّد العرضي لأساتذتنا في تلك الأيام. يجب أن نتذكر أنه في ذلك الوقت، لم يكن أحد منا سوى السيدة بلافاتسكي نفسها (وإلى حد ما دامودار) قد اكتسب بصرًا نجميًا وهو لا يزال مستيقظًا في الجسد المادي. ولم يكن بإمكان أي شخص آخر أن ينقل إلينا اليقين اللازم من خلال الاتصالات من العوالم العليا. لذلك، عندما أراد أساتذتنا نقل أي شيء إلينا بشكل قاطع، كان عليهم إما الإعلان عنه من خلال على الرغم من أن السيدة بلافاتسكي كانت تكتبها كرسالة تُسلّم بوسائل خارقة، أو لتظهر نفسها في صورة مادية وتتحدث شفهيًا.

بهذا الشكل المتجسد، رأيتُ لأول مرة كلا الأستاذين اللذين ارتبطا ارتباطًا وثيقًا بالجمعية الثيوصوفية. أما أستاذي، الذي نعرفه الآن باسم تشوهان كوثومي، فقد التقيتُ به لأول مرة (على المستوى المادي) على السطح المربع خارج باب غرفة رئيسنا، التي كانت تشغلها آنذاك السيدة بلافاتسكي. وقد غيّرت الإضافات التي أُجريت منذ ذلك الحين مظهر ذلك السقف لدرجة أنه لم يعد من السهل الآن تتبع خطوط المبنى القديم بدقة؛ ولكن كان هناك في ذلك الوقت نوع من الدرابزين يمتد على طول واجهة المنزل عند حافة السطح، وكنتُ أنظر إليه عندما تجسد الأستاذ وهو يخطو فوق ذلك الدرابزين، كما لو كان يطير في الهواء سابقًا. بطبيعة الحال، اندفعتُ إلى الأمام وسجدتُ أمامه؛ فرفعني بابتسامة لطيفة، قائلاً إنه على الرغم من أن مثل هذه المظاهر من التبجيل شائعة بين الشعوب الهندية، إلا أنه لا يتوقعها من أتباعه الأوروبيين، ورأى أنه ربما يكون هناك احتمال أقل للشعور بالإحراج إذا اقتصرت كل أمة على أسلوبها الخاص في التحية.

كانت المرة الأولى التي تشرفتُ فيها برؤية السيد موريا في إحدى تلك المناسبات التي أشرتُ إليها بالفعل، عندما زار السيدة بلافاتسكي ومنحها قوة متجددة لتحمل عبء عملها الشاق.

٧٦

سيفهم من هم على دراية بتصميم غرف الرئيس كما كانت عام ١٨٨٥ ما أقصده عندما أقول إننا كنا ثلاثة - سيدة أوروبية، وأخ هندي مرموق، وأنا - نجلس في غرفة الانتظار التي تتفرع منها غرفة نوم السيدة بلافاتسكي بزاوية قائمة. (لم تكن الغرفة المربعة التي تشغلها رئيستنا قد أُضيفت آنذاك). كانت السيدة جالسة على وسادة داخل الباب الخارجي إلى اليمين، متكئة على السور الذي يحمي الدرج المؤدي إلى الحمام. أما أنا والأخ الهندي، فجلسنا على الأرض في الزاوية المقابلة لغرفة الانتظار الصغيرة، متكئين بظهرنا على حافة أريكة، كانت تقع على يمين الباب المؤدي إلى غرفة نوم السيدة بلافاتسكي. تغييرٌ عجيب

كانت مؤسّستنا نفسها ترقد في فراشها بالداخل في حالة ضعفٍ شديد، لكنها كانت قد غطَّت في النوم لتوها، حتى إن السيدة التي كانت تُرضعها رأت أنه من الآمن أن تأخذ بضع لحظاتٍ من الراحة، فخرجت لتجلس معنا. كانت تصف لنا باكيةً ضعف السيدة الشديد، ثم توقَّفت فجأةً لتقول: "من عساها تكون؟"، إذ سمعنا جميعًا خطواتٍ سريعةً ثابتةً تقترب من ما كان آنذاك السقف المفتوح، خلف غرفة النوم. نزلت الخطوات من ذلك الطابق العلوي ومرت بسرعةٍ أمام النافذة التي كانت تواجهنا ونحن جالسون، ثم دخل السيد موريا الغرفة؛ لكن السيدة لم تره، لأنه ما إن دخل حتى اختفت نظرة الدهشة عن وجهها، وغرقت على وسادتها كما لو كانت نائمة. نهضتُ أنا والهندي على أقدامنا وسجدنا؛ لكن السيد موريا مرّ بنا بسرعة بابتسامة مشرقة، ولوّح بيده مُباركًا نحو غرفة نوم السيدة بلافاتسكي. سمعنا تعجبًا منها، بضع كلمات بصوته، ثم ردّ منها، وبعد دقائق خرج مجددًا بنفس الخطوة السريعة، مُستقبلًا تحياتنا بابتسامة، ثم أغمي عليه مجددًا بالطريقة التي أتى بها. بعد أن غادر الغرفة، نهضت السيدة من زاويتها قائلةً: "يا إلهي، من كان هذا؟"

77

قبل أن يتسنى لنا أي وقت لمناقشة الأمر، تشتّت انتباهنا نداءٌ من السيدة بلافاتسكي للممرضة، بنبرةٍ عاليةٍ وحازمةٍ بشكلٍ مُفاجئ: "أين ملابسي؟ أريد أن أرتدي ملابسي".

نظرت إلينا الممرضة بيأس (لأن الطبيب كان قد وصف لنا أقصى درجات الراحة)؛ لكن السيدة بلافاتسكي كانت تُطيع، وبالطبع كانت ترتدي ملابس مناسبة، وظهرت بمظهرٍ أشبه بشخصيتها القديمة. سألها سيدها عما إذا كانت ستموت حينها - كانت على وشك الموت، وقد عانت معاناةً شديدة - أو ما إذا كانت ستحتفظ بجسدها المادي لسنواتٍ أخرى، لتكتب ذلك الكتاب العظيم "العقيدة السرية". اختارت البقاء. لا أعتقد أنني أبالغ عندما أقول إنها منذ ذلك الحين لم تقضِ ساعةً واحدةً خاليةً من الألم، لكنها قاومته ببراعة. كتبت الكتاب، وسيبقى هناك، نصبًا تذكاريًا سيبقى عبر العصور. أعتقد أنه لا يمكن نسيانها أبدًا ما دام هذا الكتاب وكتبها الأخرى تتحدث عنها وعنها.

حياة وحيدة

لقد قلتُ إنه عندما غادرنا الكولونيل أولكوت في جولته، ظل أديار فارغًا؛ ولسوء الحظ، كانت خزينتها في نفس الحالة، مما دفع القلة القليلة المتبقية منا إلى تلقي تعليماتٍ باتباع أقصى درجات الاقتصاد. كنا أنا والسيد كوبر-أوكلي لفترة طويلة، كنا الأوروبيين الوحيدين؛ ولأنه كان يسكن على السطح في إحدى الغرف الأخرى (التي شغلها لاحقًا الدكتور إنجلش) وكنتُ في الغرفة المثمنة الشرقية، لم أرَ منه شيئًا تقريبًا، باستثناء زيارة صباحية قصيرة للترحيب كل يوم. كنا نعيش حياةً شبه زاهدة، فلم يكن هناك تقريبًا أي خدم سوى بستانيين اثنين ومانيكام، عامل المكتب. لست متأكدًا تمامًا كيف كان السيد أوكلي يُدبّر ترتيبات منزله؛ أما أنا، فكل صباح، بمجرد استيقاظي، كنتُ أضع كمية كبيرة من القمح المجروش في قدر مزدوج، مُرتّبًا بحيث لا

يحترق. ثم سبحت في نهر أديار (كان أنظف في تلك الأيام) لمدة نصف ساعة تقريبًا، ثم عدت لأجد قمحي قد نضج جيدًا. ثم قاد موظف المكتب المذكور بقرة إلى شرفتي، وحلبها في الحال في وعائي الخاص، وأحضر لي أيضًا باقة من الموز من المزرعة إن وُجدت. ثم تناولت نصف القمح، وتركت النصف الآخر لوجبة ثانية حوالي الساعة الرابعة عصرًا أو عندما أتت البقرة، ثم سخّنت القمح لبضع دقائق وتناولت منه عشاءً فاخرًا. ربما كانت ميزانية أديار في تلك الفترة أبسط مما كانت عليه منذ ذلك الحين!

تطور غير متوقع

يجب أن يُفهم أنني في تلك الأيام لم أكن أمتلك قدرة على الاستبصار، ولم أعتبر نفسي يومًا حساسًا على الإطلاق. أتذكر أنني كنتُ مقتنعًا تمامًا بأن الإنسان يجب أن يولد بقوى نفسية وجسد حساس قبل أن يتمكن من فعل أي شيء في سبيل هذا النوع من التطور، ولذلك لم أفكر قط في إمكانية تحقيق هذا النوع من التقدم في هذا التجسد، ولكن كان لدي بعض الأمل في أنه إذا عملت جيدًا كما أعرف كيف في هذه الحياة، فقد أولد في المرة القادمة بوسائل أكثر ملاءمة لهذا الخط المحدد من التقدم.

ولكن في أحد الأيام، عندما شرفني المعلم كوثومي بزيارة، سألني عما إذا كنت قد جربتُ يومًا نوعًا معينًا من التأمل المرتبط بتطوير القوة الغامضة المسماة كونداليني. كنتُ قد سمعتُ بالطبع عن هذه القوة، لكنني لم أكن أعرف عنها سوى القليل، وعلى أي حال، كنتُ أعتقد أنها بعيدة كل البعد عن متناول الغربيين. ومع ذلك، فقد نصحني ببذل بعض الجهود في مجالات محددة، وتعهد لي بعدم إفشائها لأحد إلا بإذنه المباشر، وأخبرني أنه سيشرف بنفسه على تلك الجهود لضمان عدم وقوع أي خطر. وبطبيعة الحال، فهمت التلميح، وعملت بثبات، بل أعتقد أنني أستطيع أن أقول بكثافة، على هذا النوع من التأمل يومًا بعد يوم. يجب أن أعترف أنه كان عملًا شاقًا للغاية، وأحيانًا كان مؤلمًا بشكل واضح، لكنني بالطبع ثابرت، وفي الوقت المناسب بدأت أحقق النتائج التي توقعتها. كان لا بد من فتح قنوات معينة وهدم بعض الحواجز؛ قيل لي إن أربعين يومًا هي تقدير عادل لمتوسط الوقت المطلوب إذا كان الجهد نشيطًا ومثابرًا حقًا. عملت عليه لمدة اثنين وأربعين يومًا، وبدا لي أنني على وشك تحقيق النصر النهائي، عندما تدخل المعلم بنفسه وقام بالخطوة الأخيرة المتمثلة في الاختراق الذي أكمل العملية، ومكّنني بعد ذلك من استخدام الرؤية النجمية مع الاحتفاظ بوعيي الكامل في الجسد المادي - وهو ما يعادل القول بأن الوعي والذاكرة النجمية أصبحا مستمرين سواء كان الجسد المادي مستيقظًا أم نائمًا. لقد أُعطيت فهمًا أن جهدي الخاص كان سيمكنني من تحقيق الاختراق في أربع وعشرين ساعة إضافية، لكن المعلم تدخل لأنه أراد أن يستخدمني فورًا في عمل معين.

التدريب النفسي

ومع ذلك، لا ينبغي الافتراض للحظة أن اكتساب هذه القوة الخاصة كان نهاية التدريب الخفي. بل على العكس، فقد ثبت أنه مجرد بداية عام من أصعب عمل عرفته في حياتي. من المفهوم أنني كنت أعيش هناك في الغرفة المثمنة على ضفة النهر وحدي لساعات طويلة كل يوم، وكنت شبه محمي من أي انقطاع إلا في أوقات الطعام التي ذكرتها.

كان العديد من الأساتذة لطفاء للغاية لدرجة أنهم زاروني خلال تلك الفترة وقدموا لي تلميحات مختلفة؛ لكن الأستاذ جوال كول هو من قدم لي معظم التعليمات اللازمة. ولعله تأثر بهذا اللطف بسبب ارتباطي الوثيق به في حياتي الأخيرة، عندما درست على يديه في مدرسة فيثاغورس التي أنشأها في أثينا، بل وكان لي شرف إدارتها بعد وفاته. لا أعرف كيف أشكره على القدر الهائل من العناية والجهد الذي بذله في تعليمي النفسي؛

كان يتشكل بصبر وتكرار، ويسألني: "ماذا ترى؟" وعندما كنتُ أصف الأمر بأفضل ما أستطيع، كان التعليق يتكرر: "لا، لا، أنت لا ترى الحقيقة؛ أنت لا ترى كل شيء؛ تعمق في نفسك، استخدم رؤيتك العقلية كما هو الحال مع رؤيتك النجمية؛ اضغط أكثر قليلاً، أعلى قليلاً." غالبًا ما كان لا بد من إجراء هذه العملية.

تكررت هذه التجربة مرات عديدة قبل أن يُرضي مُرشدي. يجب اختبار التلميذ بشتى الطرق وفي ظل جميع الظروف المُمكنة؛ بل في نهاية الحصة الدراسية، تُستدعى أرواح الطبيعة الرياضية خصيصًا وتُؤمر بكل الطرق المُمكنة لمحاولة إرباك أو تضليل الرائي. لا شك في أنه عمل شاق، والضغط الذي يُفرضه، على ما أعتقد، يُقارب ما يُمكن لإنسان أن يتحمله بسلام؛ لكن النتيجة المُحققة بالتأكيد أكثر من مُستحقة، لأنها تُؤدي مُباشرةً إلى اتحاد الذات الدنيا والذات العليا، وتُنتج يقينًا تامًا بمعرفة مبنية على التجربة، لا يُمكن لأي أحداث مُستقبلية أن تُزعزعه. على الصعيد المادي، شرفني عالمنا العظيم سوامي ت. سوبا راو بالذهاب إلى المقر الرئيسي للمشاركة في التدريب والاختبار، وأشعر أنني لن أكون ممتنًا بما فيه الكفاية لكل المساعدة التي قدمها لي هذان الشخصان العظيمان في هذه المرحلة الحرجة من حياتي.

وعندما يُفتح الطريق هكذا، لا نهاية لإمكانية التفتح، وأعتقد أنني أستطيع القول دون خوف من المبالغة إنه لم يمر يوم واحد في الخمسة والأربعين عامًا التي انقضت منذ ذلك الحين دون أن أتعلم حقيقة جديدة. تتكون يوغا المبتدئ، كما هو الحال في جميع أنواع اليوغا الأخرى، من ضغط تصاعدي ثابت نحو الاتحاد مع الإلهي على مستويات أعلى فأعلى؛ على المرء أن يعمل على توجيه الوعي بثبات من مستوى فرعي إلى مستوى فرعي في العالم البوذي، ثم بعد ذلك من خلال النيرفاني. وحتى وراء كل ذلك، لا تزال عوالم أخرى لا تُحصى تنتظر الاكتشاف، لأن قوة اللانهائي وحكمته ومحبته كمنجمٍ عظيم من الجواهر، يُمكن للمرء أن يغوص فيه بعمقٍ أكبر دون أن يستنفد طاقته؛ بل إنها تُشكل بحرًا بلا شاطئ، تتسلل إليه قطرة ندى منا، ومع ذلك لا تضيع فيه، بل تشعر وكأنها امتصت المحيط بأكمله.

هكذا أريد أن أعيش - ولكن الآن، ليس أنا، بل هو، بكل قوته ومحبته، حيٌّ فيّ من الآن فصاعدًا.

هنا إذن، يجب أن أنهي هذه القطعة من سيرتي الذاتية، لأن هذا هو "كيف وصلت إليّ الثيوصوفية" - أولًا من خلال مؤسستنا العظيمة السيدة بلافاتسكي على المستوى المادي، ثم بشكل أكمل وعلى المستويات العليا من خلال أعضاء آخرين في جماعة الإخوان البيضاء العظيمة التي عرّفتني عليها. عسى أن يجد جميع إخوتي في الثيوصوفية السلام والسعادة اللذين وجدتهما!

نهاية الكتاب